فكان ما كان مما لست أذكره * فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وانما أدبته المعارف وحذقته العلوم وانظر الى قول ابي بكر بن الصائغ المتصل بكلامه في صفة
الاتصال فانه يقول اذا فهم المعنى المقصود من كتابه ذلك ظهر عند ذلك انه لا يمكن ان يكون
معلوم من العلوم المتعاطاة في رتبته وحصل متصوره بفهم ذلك المعنى في رتبة يرى نفسه
فيها مباينا لجميع ما تقدم مع اعتقادات أخر ليست هيولانية وهي اجل من ان تنسب
الى الحياة الطبيعية بل هي احوال من احوال السعداء منزهة عن تركيب الحياة
الطبيعية بل هي احوال من احوال السعداء خليقة ان يقال لها احوال الهية يهبها الله
سبحانه وتعالى لمن يشاء من عباده وهذه الرتبة التي اشار اليها ابو بكر ينتهى اليها
بطريق العلم النظري والبحث الفكري ولا شك انه بلغها ولم يتخطها واما الرتبة التي
اشرنا اليها نحن اولا فهي غيرها وان كانت اياها بمعنى انه لا ينكشف فيها امر على خلاف
ما انكشف في هذه وانما تغايرها بزيادة الوضوح ومشاهدتها بامر لا نسميه قوة الا على المجاز
اذ لا نجد في الالفاظ الجمهورية ولا في الاصطلاحات الخاصة اسماء تدل على الشئ الذي يشاهد
به ذلك النوع من المشاهدة وهذه الحال التي ذكرناها وحركنا سؤالك الى ذوق منها هي من
جملة الاحوال التي نبه عليها الشيخ ابو علي حيث يقول ثم اذا بلغت به الارادة والرياضة حدا ما
عنت له خلسات من اطلاع نور الحق لذيذة كأنها بروق تومض اليه ثم تخمد عنه ثم انه تكثر
عليه هذه الغواشي اذا امعن في الارتياض ثم انه ليتوغل في ذلك حتى يغشاه في غير الارتياض
فكلما لمح شيأ عاج منه الى جناب القدس فيذكر من امره امرا فيغشاه غاش فيكاد يرى
الحق في كل شئ ثم انه لتبلغ به الرياضة مبلغا ينقلب له وقته سكينة فيصير المخطوف مألوفا
والوميض شهابا بينا وتحصل له معارفة مستقرة كأنها صحبة مستمرة الى ما وصفه من تدريج
المراتب وانتهائها الى النيل بان يصير سره مرآة مجلوة يحاذي بها شطر الحق وحينئذ تدر
عليه اللذات العلى ويفرح بنفسه لما بها من اثر الحق ويكون له في هذه الرتبة نظر الى الحق
ونظر الى نفسه وهو بعد متردد ثم انه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط وان لحظ
نفسه فمن حيث هي لاحظة وهناك يحق الوصول فهذه الاحوال التي وصفها رضي الله عنه انما
اراد بها ان تكون له ذوقا لا على سبيل الادراك النظري المستخرج بالمقاييس وتقديم المقدمات
وانتاج النتائج وان اردت مثالا يظهر لك به الفرق بين ادراك هذه الطائفة وادراك سواها
فتخيل حال من خلق مكفوف البصر الا انه جيد الفطرة قوي الحدس ثابت الحفظ مسدد
الخاطر فنشأ منذ كان في بلدة من البلدان وما زال يتعرف اشخاص الناس بها وكثيرا من انواع
الحيوان والجمادات وسكك المدينة ومسالكها وديارها واسواقها بما له من ضروب الادراكات
الاخر حتى صار بحيث يمشي في تلك المدينة بغير دليل ويعرف كل من يلقاه ويسلم عليه باول
وهلة وكان يعرف الالوان وحدها بشروح اسمائها وبعض حدود تدل عليها ثم انه بعد ان حصل
في هذه الرتبة فتح بصره وحدثت له الرؤية البصرية فمشى في تلك المدينة كلها وطاف بها فلم يجد
امرا على خلاف ما كان يعتقده ولا أنكر من امرها شيأ وصادف الالوان على نحو صدق الرسوم
عنده التي كانت رسمت له بها غير انه في ذلك كله حدث له امران عظيمان احدهما تابع للآخر

وهم ازيادة الوضوح والابتهاج واللذة العظيمة فحال النظار الذين لم يصلوا الى طور الولاية
هي حالة الاعمى الاولى والالوان التي في هذه الحال معلومة بشروح اسمائها هي تلك الامور التي
قال ابو بكر انها اجل من ان تنسب الى الحياة الطبيعية يهبها الله لمن يشاء من عباده وحال
النظار الذين وصلوا الى طور الولاية ومنحهم الله تعالى ذلك الشيء الذي قلنا انه لا يسمى قوة
الا على سبيل المجاز هي الحالة الثانية وقد يوجد في النادر من هو بمنزلة من كان ابدا ثاقب
البصيرة مفتوح البصر غير محتاج الى النظر ولست اعني اكرمك الله بولايته ههنا بادراك اهل
النظر ما يدركونه من عالم الطبيعة وبادراك اهل الولاية ما يدركونه مما بعد الطبيعة فان هذين
المدركين متباينان جدا بانفسهما ولا يلتبس احدهما بالآخر بل الذي نعنيه بادراك اهل النظر
ما يدركونه مما بعد الطبيعة مثل ما ادركه ابو بكر ويشترط في ادراكهم هذا ان يكون حقا
صحيحا وحينئذ يقع النظر بينه وبين ادراك اهل الولاية الذين يعتنون بتلك الاشياء بعينها
مع زيادة وضوح وعظيم التذاذ وقد عاب ابو بكر ذكر هذا الالتذاذ على القوم وذكر انه
للقوة الخيالية ووعد بان يصف ما ينبغي ان يكون حال السعداء عند ذلك بقول مفسر مبين
وينبغي ان يقال له لا تستحل طعم شيء لم تذق ولا تتخط رقاب الصديقين ولم يفعل الرجل شيأ من
ذلك ولا وفى بهذه العدة وقد يشبه ان منعه عن ذلك ما ذكره من ضيق الوقت واشتغاله بالنزول
الى وهران او رأى انه ان وصف تلك الحال اضطره القول الى اشياء فيها قدح عليه في سيرته
وتكذيب لما اثبته من الحث على الاستكثار من المال والجمع له وتصريف وجوه الحيل
في اكتسابه * وقد خرج بنا الكلام الى غير ما حركتنا اليه بسؤالك بعض خروج بحسب
ما دعت الضرورة اليه * وظهر بهذا القول ان مطلوبك لم يتعد احد غرضين * اما ان
تسأل عما يراه اصحاب المشاهدة والاذواق والحضور في طور الولاية فهذا مما لا يمكن اثباته
على حقيقة امره في كتاب ومتى حاول احد ذلك وتكلفه بالقول او الكتب استحالت حقيقته
وصار من قبيل القسم الآخر النظري لانه اذا كسي الحروف والاصوات وقرب من عالم
الشهادة لم يبق على ما كان عليه بوجه ولا حال واختلفت العبارات فيه اختلافا كثيرا وزلت
به اقدام قوم عن الصراط المستقيم وظن بآخرين ان اقدامهم زلت وهي لم تزل وانما كان
ذلك لانه امر لا نهاية له في حضرة متسعة الاكناف محيطة غير محاط بها * والغرض الثاني من
الغرضين اللذين قلنا ان سؤالك لا يتعدى احدهما هو ان تبتغي التعريف بهذا الامر على
طريقة اهل النظر وهذا اكرمك الله بولايته شيء يحتمل ان يوضع في الكتب وتتصرف
فيه العبارات ولكنه أعدم من الكبريت الاحمر ولا سيما في هذا الصقع الذي نحن فيه لانه
من الغرابة في حد لا يظفر باليسير منه الا الفرد بعد الفرد ومن ظفر بشيء منه لم يكلم الناس به
الا رمزا فان الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه وحذرت عنه ولا
تظنن ان الفلسفة التي وصلت الينا في كتب ارسطوطاليس وابي نصر وفي كتاب الشفاء تفي
بهذا الغرض الذي اردته ولا ان احدا من اهل الاندلس كتب فيه شيأ فيه كفاية وذلك ان من
نشأ بالاندلس من اهل الفطرة الفائقة قبل شيوع علم المنطق والفلسفة فيها قطعوا اعمارهم
بعلوم التعاليم وبلغوا فيها مبلغا رفيعا ولم يقدروا على اكثر من ذلك ثم خلف من بعدهم خلف
زادوا عليهم بشيء من علم المنطق فنظروا فيه ولم يفض بهم الى حقيقة الكمال فكان فيهم من قال

برح

برح بي ان علوم الورى * اثنان ما ان فيهما من مزيد
حقيقة يعجز تحصيلها * وباطل تحصيله ما يفيد

ثم خلف من بعدهم خلف اخر احذق منهم نظرا واقرب الى الحقيقة ولم يكن فيهم اثقب ذهنا
ولا اصح نظرا ولا اصدق روية من ابي بكر بن الصائغ غير انه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية
قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته واكثر ما يوجد له من التآليف انما هي غير كاملة
ومجزومة من اواخرها ككتابه في النفس وتدبير المتوحد وما كتبه في المنطق وعلم الطبيعة
واما كتبه الكاملة فهي كتب وجيزة ورسائل مختلسة وقد صرح هو نفسه بذلك وذكر ان المعنى
المقصود برهانه في رسالة الاتصال ليس يعطيه ذلك القول عطاء بينا الا بعد عسر واستكراه
شديد وان ترتيب عبارته في بعض المواضع على غير الطريق الاكمل ولو اتسع له الوقت مال
لتبديلها (فهذا حال ما وصل الينا من علم هذا الرجل ونحن لم نلق شخصه) واما من كان
معاصرا له ممن لم يوصف بانه في مثل درجته فلم نر له تاليفا * واما من جاء بعدهم من المعاصرين
لنا فهم بعد في حد التزايد او الوقوف على غير كمال او ممن لم تصل الينا حقيقة امره * واما ما وصل
الينا من كتب ابي نصر فاكثرها في المنطق وما ورد منها في الفلسفة فهي كثيرة الشكوك فقد
اثبت في كتاب الملة الفاضلة بقاء النفوس الشريرة بعد الموت في آلام لا نهاية لها بقاء
لا نهاية له ثم صرح في السياسة المدنية بانها منحلة وصائرة الى العدم وانه لا بقاء الا للنفوس
الكاملة ثم وصف في كتاب الاخلاق شيأ من امر السعادة الانسانية وانها انما تكون في
هذه الحياة التي في هذه الدار ثم قال عقب ذلك كلاما هذا معناه وكل ما يذكر غير هذا فهو
هذيان وخرافات عجائز فهذا قد أيأس الخلق جميعا من رحمة الله تعالى وصير الفاضل والشرير
في رتبة واحدة اذ جعل مصير الكل الى العدم وهذه زلة لا تقال وعثرة ليس بعدها جبر هذا
مع ما صرح به من سوء معتقده في النبوة وانها بزعمه للقوة الخيالية خاصة وتفضيله الفلسفة
عليها الى اشياء ليس بنا حاجة الى ايرادها * واما كتب ارسطوطاليس فقد تكفل الشيخ
ابو علي بالتعبير عما فيها وجرى على مذهبه وسلك طريق فلسفته في كتاب الشفاء وصرح في اول
الكتاب بان الحق عنده غير ذلك وانه انما الف ذلك الكتاب على مذهب المشائين وان من
اراد الحق الذي لا جمجمة فيه فعليه بكتابه في الفلسفة المشرقية ومن عني بقراءة كتاب الشفا
وبقراءة كتب ارسطوطاليس ظهر له في اكثر الامور انها تتفق وان كان في كتاب الشفا اشياء لم
تبلغ الينا عن ارسطو واذا اخذ جميع ما تعطيه كتب ارسطو وكتاب الشفا على ظاهره دون
ان يتفطن لسره وباطنه لم يوصل به الى الكمال حسبما نبه عليه الشيخ ابو علي في كتاب
الشفا * واما كتب الشيخ ابي حامد الغزالي فهو بحسب مخاطبته للجمهور يربط في موضع
ويحل في آخر ويكفر باشياء ثم ينتحلها ثم انه من جملة ما كفر به الفلاسفة في كتاب
التهافت انكارهم لحشر الاجساد واثباتهم الثواب والعقاب للنفوس خاصة ثم قال في
اول كتاب الميزان ان هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع ثم قال في كتاب
المنقذ من الضلال والمفصح بالاحوال ان اعتقاده هو كاعتقاد الصوفية وان امره انما
وقف على ذلك بعد طول البحث وفي كتبه من هذا النوع كثير يراه من تصفحها وامعن
النظر فيها وقد اعتذر عن هذا الفعل في اخر كتاب ميزان العمل حيث وصف ان الاراء

ثلاثة اقسام رأى يشارك فيه الجمهور فيما هم عليه ورأى يكون بحسب ما يخاطب به كل سائل ومسترشد ورأى يكون بين الانسان وبين نفسه لا يطلع عليه الا من هو شريكه فى اعتقاده ثم قال بعد ذلك ولو لم يكن فى هذه الالفاظ الا ما يشكك فى اعتقادك الموروث لكفى بذلك نفعا فان من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى فى العمى والحيرة ثم تمثل بهذا البيت

خذ ما تراه ودع شيأ سمعت به * فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

فهذه صفة تعليمه واكثره انما هو رمز واشارة لا ينتفع به الا من وقف عليها ببصيرة نفسه اولا ثم سمعها منه ثانيا أو من كان معدا لفهمها فائق الفطرة يكتفى بايسر اشارة وقد ذكر فى كتاب الجواهر ان له كتبا مضنونا بها على غير أهلها وانه ضمنها صريح الحق ولم يصل الى الاندلس فى علمنا منها شئ بل وصلت كتب يزعم بعض الناس انها هى تلك المضنون بها وليس الامر كذلك وتلك الكتب هى كتاب المعارف العقلية وكتاب النفخ والتسوية ومسائل مجموعة سواها وهذه الكتب وان كانت فيها اشارات فانها لا تتضمن عظيم زيادة فى الكشف على ما هو مبثوث فى كتبه المشهورة وقد يوجد فى كتاب المقصد الاسنى ما هو أغمض مما فى تلك وقد صرح هو بان كتاب المقصد الاسنى ليس مضنونا به فيلزم من ذلك ان هذه الكتب الواصلة ليست هى المضنون بها وقد توهم بعض المتأخرين من كلامه الواقع فى اخر كتاب المشكاة امرا عظيما اوقعه فى مهواة لا مخلص له منها وهو قوله بعد ذكر اصناف المحجوبين بالانوار ثم انتقاله الى ذكر الواصلين انهم وقفوا على ان هذا الموجود العظيم متصف بصفة تنافى الوحدانية المحضة فاراد ان يلزمه من ذلك انه يعتقد ان الحق سبحانه فى ذاته كثرة ما تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ولا شك عندنا فى ان الشيخ ابا حامد ممن سعد السعادة القصوى ووصل تلك المواصل الشريفة المقدسة لكن كتبه المضنون بها المشتملة على علم المكاشفة لم تصل الينا ولم يتخلص لنا نحن الحق الذى انتهينا اليه وكان مبلغنا من العلم بتتبع كلامه وكلام الشيخ ابى على وصرف بعضهما الى بعض واضافة ذلك الى الآراء التى نبغت فى زمننا هذا ولهج بها قوم من منتحلى الفلسفة حتى استقام لنا الحق اولا بطريق البحث والنظر ثم وجدنا منه الآن هذا الذوق اليسير بالمشاهدة وحينئذ رأينا أنفسنا اهلا لوضع كلام يؤثر عنا وتعين علينا ان تكون ايها السائل اول من اتحفناه بما عندنا واطلعناه على ما لدينا الصحيح ولا انك وزكا صفاؤك غير انا ان القينا اليك بغايات ما انتهينا اليه من ذلك من قبل ان نحكم مباديها معك لم يفدك ذلك شيئا اكثر من امر تقليدى مجمل هذا ان احسنت ظنك بنا بحسب المودة والموالفة لا بمعنى انا نستحق ان يقبل قولنا ونحن لا نقنع لك بهذه الرتبة ولا نرضى لك الا ما هو اعلى منها اذهى غير كفيلة بالنجاة فضلا عن الفوز باعلى الدرجات وانما نريدان نحملك على المسالك التى تقدم عليها سلوكنا ونسبح بك فى البحر الذى قد عبرناه اولا حتى يفضى بك الى ما افضى بنا اليه فتشاهد من ذلك ما شاهدناه وتتحقق ببصيرة نفسك كل ما تحققناه وتستغنى عن ربط معرفتك بما عرفناه * وهذا يحتاج الى مقدار معلوم من الزمان غير يسير وفراغ من الشواغل واقبال بالهمة كلها على هذا الفن فان صدق منك هذا العزم وصحت نيتك للتشمير فى هذا المطلب فتحمد عند الصباح مسراك وتنال بركة مسعاك

وتكون

وتكون قد ارضيت ربك وارضاك وانالك حيث تريده من املك وتطمئن اليه بهمتك وكابنك وارجو أن اصل من السلوك بك على اقصد الطريق وآمنها من الغوائل والآفات وان عرضت الآن الى لمحة يسيرة على التشويق والحث على دخول الطريق فانا واصف لك قصة حي بن يقظان وابسال وسلامان الذين سماهم الشيخ ابو علي ففي قصصهم عبرة لأولي الالباب وذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهو شهيد

ذكر سلفنا الصالح رضي الله عنهم ان جزيرة من جزائر الهند التي تحت خط الاستواء وهي الجزيرة التي يتولد بها الانسان من غير أم ولا أب وبها شجر يثمر نساء وهي التي ذكر المسعودي انها جواري الواقواق لان تلك الجزيرة أعدل بقاع الارض هواء وأتمها لشروق النور الاعلى عليها استعدادا وان كان ذلك على خلاف ما يراه جمهور الفلاسفة وكبار الاطباء فانهم يرون ان أعدل ما في المعمورة الاقليم الرابع فان كانوا قالوا ذلك لانه صح عندهم انه ليس على خط الاستواء عمارة لمانع من الموانع الارضية فلقولهم ان الاقليم الرابع أعدل بقاع الارض وجه وان كانوا انما أرادوا بذلك ان ما على خط الاستواء شديد الحرارة كالذي يصرح به أكثرهم فهو خطأ يقوم البرهان على خلافه وذلك انه قد تبرهن في العلوم الطبيعية انه لا سبب لتكون الحرارة الا الحركة أو ملاقاة الاجسام الحارة والاضاءة وتبين فيها أيضا ان الشمس بذاتها غير حارة ولا متكيفة بشيء من هذه الامور المزاجية وقد تبين فيها أيضا ان الاجسام التي تقبل الاضاءة أتم القبول هي الاجسام الصقيلة غير الشفافة ويليها في قبول ذلك الاجسام الكثيفة غير الصقيلة فاما الاجسام الشفافة التي لا شيء فيها من الكثافة فلا تقبل الضوء بوجه وهذا وحده مما برهنه الشيخ أبو علي خاصة ولم يذكره من تقدمه فاذا تم وصحت هذه المقدمات فاللازم عنها ان الشمس لا تسخن الارض كما تسخن الاجسام الحارة اجساما اخر تماسها لان الشمس في ذاتها غير حارة ولا الارض أيضا تسخن بالحركة لانها ساكنة وعلى حالة واحدة في وقت شروق الشمس عليها وفي وقت مغيبها عنها وأحوالها في التسخين والتبريد ظاهرة الاختلاف للحس في هذين الوقتين ولا الشمس أيضا تسخن الهواء أولا ثم تسخن بعد ذلك الارض بتوسط سخونة الهواء وكيف يكون ذلك ونحن نجد ما قرب من الهواء من الارض في وقت الحر أسخن كثيرا من الهواء الذي يبعد منه علوا فبقي ان تسخين الشمس للارض انما هو على سبيل الاضاءة لا غير فان الحرارة تتبع الضوء أبدا حتى ان الضوء اذا أفرط في المرآة المقعرة أشعل ما حاذاها وقد ثبت في علوم التعاليم بالبراهين القطعية ان الشمس كرية الشكل وان الارض كذلك وان الشمس أعظم من الارض كثيرا وان الذي يستضيء من الارض بالشمس أبدا هو أعظم من نصفها وان هذا النصف المضيء من الارض في كل وقت أشد ما يكون الضوء في وسطه لانه أبعد المواضع من الظلمة عند محيط الدائرة ولانه يقابل من الشمس أجزاء كثيرة وما قرب من المحيط كان أقل ضوءا حتى ينتهي الى الظلمة عند محيط الدائرة الذي ما أضاء موقعه من الارض قط وانما يكون الموضع وسط دائرة الضياء اذا كانت الشمس على سمت رؤوس الساكنين فيه وحينئذ تكون الحرارة في ذلك الموضع أشد ما يكون فان كان الموضع مما تبعد الشمس فيه عن مسامتة رؤوس أهله كان شديد البرودة جدا وان كان مما تدوم فيه المسامتة كان شديد الحرارة وقد ثبت في علم الهيئة ان بقاع الارض التي

على خط الاستواء لا تسامت الشمس رؤس أهلها سوى مرتين في العام عند حلولها برأس الحمل وعند حلولها برأس الميزان وهي في سائر العام ستة أشهر جنوبا منهم وستة أشهر شمالا منهم فليس عندهم حر مفرط ولا برد مفرط وأحوالها بسبب ذلك متشابهة وهذا القول يحتاج الى بيان اكثر من هذا لا يليق بما نحن بسبيله وانما نبهناك عليه لانه من الامور التي تشهد بصحة ما ذكر من تجويز تولد الانسان بتلك البقعة من غير ام ولا اب فمنهم من بت الحكم وجزم القضية بان حي بن يقظان من جملة من تكون في تلك البقعة من غير ام ولا اب ومنهم من انكر ذلك وروى من امره خبرا نقصه عليك فقال * انه كان بازاء تلك الجزيرة جزيرة عظيمة متسعة الاكناف كثيرة الفوائد عامرة بالناس يملكها رجل منهم شديد الانفة والغيرة وكانت له اخت ذات جمال وحسن باهر فعضلها ومنعها الازواج اذ لم يجد لها كفؤا وكان له قريب يسمى يقظان فتزوجها سرا على وجه جائز في مذهبهم المشهور في زمنهم ثم انها حملت منه ووضعت طفلا فلما خافت ان يفتضح امرها وينكشف سرها وضعته في تابوت احكمت زمه بعد ان اروته من الرضاع وخرجت به في اول الليل في جملة من خدمها وثقاتها الى ساحل البحر وقلبها يحترق صبابة وخوفا عليه ثم انها ودعته وقالت اللهم انك قد خلقت هذا الطفل ولم يكن شيأ مذكورا ورزقته في ظلمات الاحشاء وتكفلت به حتى تم واستوى وانا قد سلمته الى لطفك ورجوت له فضلك خوفا من هذا الملك الغشوم الجبار العنيد فكن له ولا تسلمه يا ارحم الراحمين ثم قذفت به في اليم فصادف ذلك جري الماء بقوة المد فاحتمله من ليلته الى ساحل الجزيرة الاخرى المتقدم ذكرها وكان المد يتنهي الى اقصاه في البر لا يصل الى ذلك المكان الا بعد سنة فادخله الماء بقوته الى اجمة ملتفة الشجر عذبة التربة مستورة عن الرياح والمطر محجوبة عن الشمس تزاور عنها اذا طلعت وتميل اذا غربت ثم اخذ الماء في النقص والجزر عن التابوت الذي فيه الطفل وبقي التابوت في ذلك الموضع وعلت الرمال بهبوب الرياح وتراكمت بعد ذلك حتى سدت باب الاجمة على التابوت وردمت مدخل الماء الى تلك الاجمة فكان المد لا ينتهي اليها وكانت مسامير التابوت قد قلعت والواحه قد اضطربت عند رمي الماء اياه في تلك الاجمة فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث وعالج الحركة فوقع صوته في اذن ظبية فقدت ولدها خرج من كناسه فحمله العقاب فلما سمعت الصوت ظنته ولدها فتتبعت الصوت حتى وصلت الى التابوت ففحصت عنه باظلافها وهو ينوء من داخله حتى طار عن التابوت لوح من اعلاه فحنت الظبية ورئمت به والقمته حلمتها واروته لبنا سائغا ومازالت تتعهده وتربيه وتدفع عنه الاذى * هذا ما كان من ابتداء امره عند من ينكر التولد ونحن نصف بعد هذا كيف تربى وكيف انتقل في احواله حتى بلغ المبلغ العظيم * واما الذين زعموا انه تولد من الارض فانهم قالوا ان بطنا من ارض تلك الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين والاعوام حتى امتزج فيها الحار بالبارد والرطب باليابس امتزاج تكافؤ وتعادل في القوى وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة جدا وكان بعضها يفضل بعضا في اعتدال المزاج والتهيؤ لتكون الامشاج وكان الوسط منها اعدل ما فيها واتمه مشابهة بمزاج الانسان فتمخضت تلك الطينة وحدث فيها شبه نفاخات الغليان لشدة لزوجتها وحدث في الوسط منها لزوجة ونفاخة صغيرة جدا منقسمة بقسمين بينهما حجاب رقيق ممتلئة بجسم لطيف هوائي في غاية من الاعتدال اللائق به فتعلق به عند

ذلك

ذلك الروح الذي هو من امر الله تعالى وتشبث به تشبثا يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل اذ قد تبين ان هذا الروح دائم الفيضان من عند الله عز وجل وانه بمنزلة نور الشمس الذي هو دائم الفيضان على العالم فمن الاجسام ما لا يستضاء به وهو الهواء الشفاف جدا ومنها ما يستضاء به بعض استضاءة وهي الاجسام الكثيفة غير الصقيلة وهذه تختلف في قبول الضياء فتختلف بحسب ذلك الوانها ومنها ما يستضاء به غاية الاستضاءة وهي الاجسام الصقيلة كالمرآة ونحوها فاذا كانت هذه المرآة مقعرة على شكل مخصوص حدث فيها النار لافراط الضياء وكذلك الروح الذي هو من امر الله تعالى فياض ابدا على جميع الموجودات فمنها ما لا يظهر اثره فيه لعدم الاستعداد وهي الجمادات التي لا حياة لها وهذه بمنزلة الهواء في المثال المتقدم ومنها ما يظهر اثره فيه وهي انواع النبات بحسب استعداداتها وهذه بمنزلة الاجسام الكثيفة في المثال المتقدم ومنها ما يظهر اثره فيه ظهورا كثيرا وهي انواع الحيوان وهذه بمنزلة الاجسام الصقيلة في المثال المتقدم ومن هذه الاجسام الصقيلة ما يزيد على شدة قبوله لضياء الشمس انه يحكي صورة الشمس ومثالها وكذلك ايضا من الحيوان ما يزيد على شدة قبوله للروح انه يحكي الروح ويتصور بصورته وهو الانسان خاصة واليه الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم (ان الله خلق ادم على صورته) فان قويت فيه هذه الصورة حتى تتلاشى جميع الصور في حقها وتبقى هي وحدها وتحرق سبحات نورها كل ما ادركته كانت حينئذ بمنزلة المرآة المنعكسة على نفسها المحرقة لسواها وهذا لا يكون الا للانبياء صلوات الله عليهم اجمعين وهذا كله مبين في مواضعه اللائقة به فليرجع الى تمام ما حكوه من وصف ذلك التخلق *

قالوا فلما تعلق هذا الروح بتلك القرارة خضعت له جميع القوى وسجدت له وسخرت بأمر الله تعالى في كمالها فتكون بازاء تلك القرارة نفاخة اخرى منقسمة الى ثلاث قرارات بينها حجب لطيفة ومسالك نافذة وامتلأت بمثل ذلك الجسم الهوائي الذي امتلأت منه القرارة الاولى الا انه الطف منه وسكن في هذه البطون الثلاثة المقسمة من واحد طائفة من تلك القوى التي خضعت له وتوكلت بحراسته والقيام عليه وانهاء ما يطرأ فيها من دقيق الاشياء وجلها الى الروح الاول المتعلق بالقرارة الاولى وتكون ايضا بازاء هذه القرارة من الجهة المقابلة للقرارة الثانية نفاخة ثالثة مملوءة جسما هوائيا الا انه اغلظ من الاولين وسكن في هذه القرارة فريق من تلك القوى الخاضعة المتوكلة بحفظه والقيام عليه فكانت هذه القرارة الاولى والثانية والثالثة اول ما تخلق من تلك الطينة المتخمرة الكبرى على الترتيب الذي ذكرناه واحتاج بعضها الى بعض فالاولى منها حاجتها الى الاخريين حاجة استخدام وتسخير والاخريان حاجتهما الى الاولى حاجة المرؤس الى الرئيس والمدبر الى المدبر وكلاهما لما يتخلق بعدهما من الاعضاء رئيس لا مرؤس واحدهما وهو الثاني اتم رياسة من الثالث فالاول منها لما تعلق به من الروح واشتعلت حرارته تشكل بشكل النار الصنوبري وتشكل ايضا الجسم الغليظ المحدق به على شكله وتكون لحما صلبا وصار عليه غلاف صفيق يحفظه وسمي العضو كله قلبا واحتاج لما يتبع الحرارة من التحليل وافناء الرطوبات الى شيء يمده ويغذوه ويخلف ما تحلل منه على الدوام والا لم يحصل بقاؤه واحتاج ايضا الى ان يحس بما يلائمه فيجتذبه وبما يخالفه فيدفعه فتكفل له العضو الواحد بما فيه من القوى التي اصلها

قوله القرارة بالفتح ما قر فيه والقاع المستدير

منه بحاجته الواحدة وتكفل له العضو الآخر بما فيه بالاخرى وكان المتكفل بالحس هو الدماغ والمتكفل بالغذاء هو الكبد واحتاج كل واحد من هذين اليه فى ان يمدهما بحرارته وبالقوى المخصوصة بهما التى اصلها منه فانتسجت بينهما لذلك كله مسالك وطرق بعضها اوسع من بعض بحسب ما تدعو اليه الضرورة فكانت الشرايين والعروق * ثم مازالوا يصفون الخلقة كلها والاعضاء بجملتها على حسب ما وصفه الطبيعيون فى خلقة الجنين فى الرحم لم يغادر وامن ذلك شيأ الى ان كمل خلقه وتمت اعضاؤه وحصل فى حد خروج الجنين من البطن واستعانوا فى وصف كمال ذلك بتلك الطينة الكبيرة المتخمرة وانها كانت قد تهيأت لان يتخلق منها كل ما يحتاج اليه فى خلق الانسان من الاغشية المجللة لجملة بدنه وغيرها فلما كمل انشقت عنه تلك الاغشية بشبه المخاض وتصدع باقى الطينة اذ كان قد لحقه الجفاف ثم استغاث ذلك الطفل عند فناء مادة غذائه واشتد ادجوعه فلبته ظبية فقدت طلاها ثم استوى ما وصفه هؤلاء بعد هذا الموضع وما وصفته الطائفة الاولى فى معنى التربية فقالوا جميعا ان الظبية التى تكفلت به وافقت خصبا ومرعى أثيثا فكثر لحمها ودر لبنها حتى قام بغذاء ذلك الطفل احسن قيام وكانت معه لا تبعد عنه الا لضرورة الرعى والف الطفل تلك الظبية حتى كان بحيث اذا هى أبطأت عنه اشتد بكاؤه فطارت اليه ولم يكن بتلك الجزيرة شئ من السباع العادية فتربى الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الظبية الى ان تم له حولان وتدرج فى المشى وأثغر فكان يتبع تلك الظبية وكانت هى ترفق به وترحمه وتحمله الى مواضع فيها شجر مثمر فكانت تطعمه ما تساقط من ثمراتها الحلوة النضيجة وما كان منها صلب القشر كسرته له بطواحنها ومتى عاد الى اللبن اروته ومتى ظمئ الى الماء أوردته ومتى ضحى ظللته ومتى خصر ادفأته فاذا جن الليل صرفته الى مكانه الاول وجللته بنفسها وبريش كان هنالك مما ملئ به التابوت اولا فى وقت وضع الطفل فيه وكان فى غدوهما ورواحهما قد الفهما ربرب يسرح معهما ويبيت حيث مبيتهما فما زال الطفل مع الظبية على تلك الحال يحكى نغمتها بصوته حتى لا يكاد يفرق بينهما وكذلك كان يحكى جميع ما يسمعه من اصوات الطير وانواع سائر الحيوان محاكاة شديدة لقوة انفعاله لما يريده واكثر ما كانت محاكاته لاصوات الظباء فى الاستصراخ والاستئلاف والاستدعاء والاستدفاع اذ للحيوانات فى هذه الاحوال المختلفة اصوات مختلفة فألفته الوحوش والفها ولم تنكره ولا انكرها فلما ثبت فى نفسه امثلة الاشياء بعد مغيبها عن مشاهدته حدث له نزوع الى بعضها وكراهية لبعض وكان فى ذلك كله ينظر الى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالاوبار والاشعار وانواع الريش وكان يرى ما لها من سرعة العدو وقوة البطش وما لها من الاسلحة المعدة لمدافعة من ينازعها مثل القرون والانياب والحوافر والصياصى والمخالب ثم يرجع الى نفسه فيرى ما به من العرى وعدم السلاح وضعف العدو وقلة البطش عندما كانت تنازعه الوحوش اكل الثمرات وتستبد بها دونه وتغلبها عليه فلا يستطيع المدافعة عن نفسه ولا الفرار عن شئ منها وكان يرى اترابه من اولاد الظباء قد نبتت لها قرون بعد ان لم تكن وصارت قوية بعد ضعفها فى العدو ولم ير لنفسه شيأ من ذلك كله فكان يفكر فى ذلك ولا يدرى ما سببه وكان ينظر الى ذوى العاهات والخلق الناقص فلا يجد لنفسه شبيها فيهم وكان ايضا ينظر الى مخارج الفضول من سائر الحيوان فيراها مستورة

قوله نزوع اى اشتياق اه

اما

اما مخرج الفضلتين فبالأذناب واما ارقهما فبالأوبار وما اشبهها ولانها كانت اخفى قضبانا منه فكان ذلك كله يكربه ويسوءه فلما طال همه في ذلك كله وهو قد قارب سبعة اعوام ويئس من ان يكمل له ما قد اضر به نقصه اتخذ من اوراق الشجر العريضة شيأ جعل بعضه خلفه وبعضه قدامه وعمل من الخوص والحلفاء شبه حزام على وسطه علق به تلك الاوراق فلم يلبث الا يسيرا حتى ذوى ذلك الورق وجف وتساقط عنه فما زال يتخذ غيره ويخصف بعضه ببعض طاقات مضاعفة وربما كان ذلك اطول لبقائه الا انه على كل حال قصير المدة واتخذ من اغصان الشجر عصيا سوى اطرافها وعدل متنها وكان يهش بها على الوحوش المنازعة له فيحمل على الضعيف منها ويقاوم القوى منها فنبل بذلك قدره عند نفسه بعض نبالة وعلم ان ليده فضلا كثيرا على ايديها اذ امكن له بها من ستر عورته واتخاذ العصى التي يدافع بها عن حوزته ما استغنى به عما اراده من الذنب والسلاح الطبيعى وفي خلال ذلك ترعرع واربى على السبع سنين وطال به العناء في تجديد الاوراق التي كان يستتر بها فكانت نفسه تنازعه الى اتخاذ ذنب من اذناب الوحوش الميتة ليعلقه على نفسه الا انه كان يرى احياء الوحوش تتحامى ميتها وتفر عنه فلا يتأتى له الاقدام على ذلك الفعل الى ان صادف في بعض الايام نسرا ميتا فهدى الى نيل امله منه واغتنم الفرصة فيه اذ لم ير للوحوش عنه نفرة فأقدم عليه وقطع جناحيه وذنبه صحاحا كما هي وفتح ريشها وسواها وسلخ عنه سائر جلده وفصله على قطعتين ربط احداهما على ظهره والاخرى على سرته وما تحتها وعلق الذنب من خلفه وعلق الجناحين على عضديه فأكسبه ذلك سترا ودفئا ومهابة في نفوس جميع الوحوش حتى كانت لا تنازعه ولا تعارضه فصار لا يدنو اليه شيء منها سوى الظبية التي كانت ارضعته وربته فانها لم تفارقه ولا فارقها الى ان اسنت وضعفت فكان يرتاد بها المراعى الخصبة ويجتنى لها الثمرات الحلوة ويطعمها وما زال الهزال والضعف يستولى عليها ويتوالى الى ان ادركها الموت فسكنت حركاتها بالجملة وتعطلت جميع افعالها فلما راها الصبى على تلك الحالة جزع جزعا شديدا وكادت نفسه تفيض اسفا عليها فكان يناديها بالصوت الذى كانت عادتها ان تجيبه عند سماعه ويصيح بأشد ما يقدر عليه فلا يرى لها عند ذلك حركة ولا تغيرا فكان ينظر الى اذنيها والى عينيها فلا يرى بها آفة ظاهرة وكذلك كان ينظر الى جميع اعضائها فلا يرى بشيء منها آفة فكان يطمع ان يعثر على موضع الآفة ويزيلها عنها فترجع الى ما كانت عليه فلم يتأت له شيء من ذلك ولا استطاعه وكان الذى ارشده لهذا الراى ما كان قد اعتبره في نفسه قبل ذلك لانه كان يرى انه اذا غمض عينيه او حجبهما بشيء لا يبصر شيأ حتى يزول ذلك العائق وكذلك يرى انه اذا ادخل اصبعيه في اذنيه وسدهما لا يسمع شيأ حتى يزيلهما واذا امسك انفه بيده لا يشم شيأ من الروائح حتى يفتح انفه فاعتقد من اجل ذلك ان جميع ما له من الادراكات والافعال قد تكون لها عوائق تعوقها فاذا ازيلت تلك العوائق عادت الافعال فلما نظر الى جميع اعضائها الظاهرة ولم ير فيها آفة ظاهرة وكان يرى مع ذلك العطلة قد شملتها ولم يختص بها عضو دون عضو وقع في خاطره ان الآفة التي نزلت بها انما هي في عضو غائب عن العيان مستكن في باطن الجسد وان ذلك العضو لا يغنى عنه في فعله شيء من هذه الاعضاء الظاهرة فلما نزلت به الآفة عمت المضرة وشملت العطلة وطمع بأنه لو عثر بذلك العضو وأزال

عنها ما نزل به لاستقامت احواله وفاض على سائر البدن نفعه وعادت الافعال الى ما كانت عليه وكان قد شاهد قبل ذلك فى الاشباح الميتة من الوحوش وسواها ان جميع اعضائها مصمتة لا تجويف فيها الا القحف والصدر والبطن فوقع فى نفسه ان العضو الذى بتلك الصفة لن يعدو احد هذه المواضع الثلاثة وكان يغلب على ظنه غلبة قوية انه انما هو فى الموضع المتوسط من هذه المواضع الثلاثة اذ كان قد استقر فى نفسه ان جميع الاعضاء محتاجة اليه وان الواجب بحسب ذلك ان يكون مسكنه فى الوسط وكان ايضا اذا رجع الى ذاته شعر بمثل هذا العضو فى صدره ولانه كان يعترض سائر اعضائه كاليد والرجل والاذن والانف والعين والراس ويقدر مفارقتها فيتأتى له انه كان يستغنى عنها وكان يقدر فى رأسه مثل ذلك ويظن انه يستغنى عنه فاذا فكر فى الشئ الذى يجده فى صدره لم يتأت له الاستغناء عنه طرفة عين وكذلك كان عند محاربته الوحوش اكثر ما يتقى من صياصيهم على صدره لشعوره بالشئ الذى فيه فلما جزم الحكم بان العضو الذى نزلت به الآفة انما هو فى صدرها اجمع على البحث عليه والتنقير عنه لعله يظفر به ويرى آفته فيزيلها ثم انه خاف ان يكون نفس فعله هذا اعظم من الآفة التى نزلت بها اولا فيكون سعيه عليها ثم انه تفكر هل رأى من الوحوش وسواها من صار فى مثل تلك الحال ثم عاد الى مثل حاله الاول فلم يجد شيأ فحصل له من ذلك اليأس من رجوعها الى حالها الاول ان هو تركها وبقى له بعض رجاء فى رجوعها الى تلك الحال ان هو وجد ذلك العضو وازال الآفة عنه فعزم على شق صدرها وتفتيش ما فيه فاتخذ من كسور الاحجار الصلدة وشقوق القصب اليابسة اشباه السكاكين وشق بها بين اضلاعها حتى قطع اللحم الذى بين الاضلاع وافضى الى الحجاب المستبطن للاضلاع فرآه قويا فقوى ظنه بان مثل ذلك الحجاب لا يكون الا لمثل ذلك العضو وطمع بانه اذا تجاوزه الفى مطلوبه فحاول شقه فصعب عليه لعدم الآلات ولانها لم تكن الا من الحجارة والقصب فاستجدها ثانية واستحدها وتلطف فى خرق الحجاب حتى انخرق له فافضى الى الرئة فظن اولا انها مطلوبه فما زال يقلبها ويطلب موضع الآفة بها وكان اولا انما وجد منها نصفها الذى هو فى الجانب الواحد فلما رآها مائلة الى جهة واحدة وكان قد اعتقد ان ذلك العضو لا يكون الا فى الوسط فى عرض البدن كما هو فى الوسط فى طوله فما زال يفتش فى وسط الصدر حتى الفى القلب وهو مجلل بغشاء فى غاية القوة مربوط بعلائق فى غاية الوثاقة والرئة مطيفة به من الجهة التى بدأ بالشق منها فقال فى نفسه ان كان لهذا العضو من الجهة الاخرى مثل ما له من هذه الجهة فهو فى حقيقة الوسط ولا محالة انه مطلوبى لا سيما مع ما ارى له من حسن الوضع وجمال الشكل وقلة التشتت وقوة اللحم وانه محجوب بمثل هذا الحجاب الذى لم ار مثله لشئ من الاعضاء فبحث عن الجانب الآخر من الصدر فوجد فيه الحجاب المستبطن للاضلاع ووجد الرئة على ما وجده من هذه الجهة فحكم بان ذلك العضو هو مطلوبه فحاول هتك حجابه وشق شغافه فبكد واستكراه ما قدر على ذلك بعد استفراغ مجهوده وجرد القلب فرآه مصمتا من كل جهة فنظر هل يرى فيه آفة ظاهرة فلم ير فيه شيأ فشد عليه يده فتبين له ان فيه تجويفا فقال لعل مطلوبى الاقصى انما هو فى داخل هذا العضو وانا حتى الآن لم اصل اليه فشق عليه فالفى فيه تجويفين اثنين احدهما من الجهة اليمنى والآخر من الجهة اليسرى والذى من الجهة اليمنى مملوء بعلق منعقد والذى من الجهة اليسرى خال لا شئ فيه فقال لن يعدو مطلبى ان يكون مسكنه احد هذين البيتين ثم

قال

قال اما هذا البيت الايمن فلا أرى فيه غير هذا الدم المنعقد ولا شك انه لم ينعقد حتى صار الجسد كله الى هذا الحال اذ كان قد شاهد ان الدماء كلها متى سالت وخرجت انعقدت وجمدت ولم يكن هذا الادما كسائر الدماء وانا أرى هذا الدم موجودا فى سائر الاعضاء لا يختص به عضو دون اخر وانا ليس مطلوبى شيأ بهذه الصفة انما مطلوبى الشئ الذى يختص به هذا الموضع الذى اجدنى لا استغنى عنه طرفة عين واليه كان انبعاثى من اول واما هذا الدم فكم مرة جرحتنى الوحوش فى المحاربة فسال منى كثير منه فما ضرنى ذلك ولا أفقدنى شيأ من افعالى فهذا بيت ليس فيه مطلوبى واما البيت الايسر فاراه خاليا لا شئ فيه وما ارى ان ذلك باطل فانى رايت كل عضو من الاعضاء انما هو لفعل يختص به فكيف يكون هذا البيت على ما شاهدت من شرفه باطلا ما ارى الا ان مطلوبى كان فيه فارتحل عنه واخلاه وعند ذلك طرأ على هذا الجسد من العطلة ما طرأ ففقد الادراك وعدم الحراك فلما راى ان الساكن فى ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه وتركه وهو بحاله تحقق انه احرى ان لا يعود اليه بعد ان حدث فيه من الخراب والتخريق ما حدث فصار عنده الجسد كله خسيسا لا قدر له بالاضافة الى ذلك الشئ الذى اعتقد فى نفسه انه يسكنه مدة ويرحل عنه بعد ذلك فاقتصر على الفكرة فى ذلك الشئ ما هو وكيف هو وما الذى ربطه بهذا الجسد والى اين صار ومن اى الابواب خرج عند خروجه من الجسد وما السبب الذى ازعجه ان كان خرج كارها او السبب الذى كره اليه الجسد حتى فارقه ان كان خرج مختارا وتشتت فكره فى ذلك كله وسلا عن ذلك الجسد وطرحه وعلم ان امه التى عطفت عليه وارضعته انما كانت ذلك الشئ المرتحل وعنه كانت تصدر تلك الافعال كلها لا هذا الجسد العاطل وان هذا الجسد بجملته انما هو كالآلة لذلك وبمنزلة العصى التى اتخذها هو لقتال الوحوش فانتقلت علاقته عن الجسد الى صاحب الجسد ومحركه ولم يبق له شوق الا اليه وفى خلال ذلك نتن ذلك الجسد وفاحت منه روائح كريهة فزادت نفرته عنه وود ان لا يراه ثم انه سنح لنظره غرابان يقتتلان حتى صرع احدهما الآخر ميتا ثم جعل الحى يبحث فى الارض حتى حفر حفرة فوارى فيها ذلك الميت بالتراب فقال فى نفسه ما احسن ما صنع هذا الغراب فى مواراة جيفة صاحبه وان كان قد اساء فى قتله اياه وانا كنت احق بالاهتداء الى هذا الفعل بامى فحفر حفرة والقى فيها جسد امه وحثى عليها التراب وبقى يتفكر فى ذلك الشئ المصرف للجسد ولا يدرى ما هو غير انه كان ينظر الى اشخاص الظباء كلها فيراها على شكل امه وعلى صورتها فكان يغلب على ظنه ان كل واحد منها انما يحركه ويصرفه شئ هو مثل الشئ الذى كان يحرك امه ويصرفها فكان يالف الظباء ويحن اليها لمكان ذلك الشبه وبقى على ذلك برهة من الزمان يتصفح انواع الحيوان والنبات ويطوف بساحل تلك الجزيرة ويتطلب هل يجد لنفسه شبيها حسبما يرى لكل واحد من اشخاص الحيوان والنبات اشباها كثيرة فلا يجد شيأ من ذلك وكان يرى البحر قد احدق بالجزيرة من كل جهة فيعتقد انه ليس فى الوجود ارض سوى جزيرته تلك واتفق فى بعض الاحيان ان انقدحت نار فى اجمة قلخ على سبيل المحاكاة فلما بصر بها راى منظرا هاله وخلقا لم يعتده قبل فوقف يتعجب منها مليا وما يزال يدنو منها شيأ فشيأ فراى ما للنار من الضوء الثاقب والفعل الغالب حتى لا تعلق بشئ الا اتت عليه واحالته الى نفسها فحمله العجب بها وما ركب الله تعالى فى طباعه من الجراءة

والقوة على ان مد يده اليها واراد ان يأخذ منها شيئا فلما باشرها احرقت يده ولم يستطع القبض
عليها فاهتدى الى ان يأخذ قبسا لم تستول النار على جميعه فاخذ بطرفه السليم والنار في طرفه
الآخر فتأتى له ذلك وحمله الى موضعه الذي كان يأوي اليه وكان قد خلا في جحر كان استحسنه
للسكنى قبل ذلك ثم ما زال يمد تلك النار بالحشيش والحطب الجزل ويتعهدها ليلا ونهارا
استحسانا لها وتعجبا منها وكان يزيد انسه بها ليلا لانها كانت تقوم له مقام الشمس في الضياء
والدفء فعظم بها ولوعه واعتقد انها افضل الاشياء التي لديه وكان دائما يراها تتحرك الى
جهة فوق وتطلب العلو فغلب على ظنه انها من جملة الجواهر السماوية التي كان يشاهدها
وكان يختبر قوتها في جميع الاشياء بان يلقيها فيها فيراها مستولية عليه اما بسرعة واما ببطء
بحسب قوة استعداد الجسم الذي كان يلقيه للاحتراق او ضعفه وكان من جملة ما ألقى فيها على
سبيل الاختبار لقوتها شيأ من اصناف الحيوانات البحرية كان قد ألقاه البحر الى ساحله
فلما انضجت ذلك الحيوان وسطع قتاره تحركت شهوته اليه فاكل منه شيأ فاستطابه فاعتاد
بذلك اكل اللحم فصرف الحيلة في صيد البر والبحر حتى مهر في ذلك وزادت محبته في النار
اذ تأتى له بها من وجوه الاغتذاء الطيب شيء لم يتأت له قبل ذلك فلما اشتد شغفه بها لما رأى
من حسن آثارها وقوة اقتدارها وقع في نفسه ان الشيء الذي ارتحل من قلب امه الظبية التي
أنشأته كان من جوهر هذا الموجود او من شيء يجانسه واكد ذلك في ظنه ما كان يراه من حرارة
الحيوان طول مدة حياته وبرودته من بعد موته وكل هذا دائم لا يختل وما كان يجده في نفسه
من شدة الحرارة عند صدره بازاء الموضع الذي كان قد شق عليه من الظبية فوقع في نفسه انه
لو اخذ حيوانا وشق قلبه ونظر الى ذلك التجويف الذي صادفه خاليا عندما شق عليه في
امه الظبية لرآه في هذا الحيوان الحي وهو مملوء بذلك الشيء الساكن فيه وتحقق هل هو من
جوهر النار وهل فيه شيء من الضوء والحرارة ام لا فعمد الى بعض الوحوش واستوثق منه
كتافا وشقه على الصفة التي شق بها الظبية حتى وصل الى القلب فقصد اولا الى الجهة
اليسرى منه وشقها فرأى ذلك الفراغ مملوا بهواء بخاري يشبه الضباب الابيض فادخل
اصبعه فيه فوجده من الحرارة في حد كاد يحرقه ومات ذلك الحيوان على الفور فصح عنده ان
ذلك البخار الحار هو الذي كان يحرك هذا الحيوان وان في كل شخص من اشخاص الحيوانات
مثل ذلك ومتى انفصل عن الحيوان مات ثم تحركت في نفسه الشهوة للبحث عن سائر اعضاء
الحيوان وترتيبها واوضاعها وكمياتها وكيفية ارتباط بعضها ببعض وكيف تستمد من هذا
البخار الحار حتى تستمر لها الحياة به وكيف بقاء هذا البخار المدة التي تبقى ومن أين
يستمد وكيف لا تنفد حرارته فتتبع ذلك كله بتشريح الحيوانات الاحياء والاموات ولم يزل
ينعم النظر فيها ويجيد الفكرة حتى بلغ في ذلك كله مبلغ كبار الطبيعيين فتبين له ان كل
شخص من اشخاص الحيوان وان كان كثيرا باعضائه وتفنن حواسه وحركاته فانه واحد
بذلك الروح الذي مبدؤه من قرار واحد وانقسامه في سائر الاعضاء منبعث منه وان جميع
الاعضاء انما هي خادمة له او مؤدية عنه وان منزلة ذلك الروح في تصريف الجسد كمنزلة من
يحارب الاعداء بالسلاح التام او يصيد جميع صيد البحر والبر فيعد لكل جنس آلة يصيده بها
والتي يحارب بها تنقسم الى ما يدفع بها نكاية غيره والى ما ينكي بها غيره وكذلك الات

الصيد

الصيد تنقسم الى ما يصلح لحيوان البحر والى ما يصلح لحيوان البر وكذلك الاشياء التى يشرح بها تنقسم الى ما يصلح للشق والى ما يصلح للكسر والى ما يصلح للثقب والبدن واحد وهو يصرف ذلك انحاء من التصريف بحسب ما تصلح له كل آلة وبحسب الغايات التى تلتمس بذلك التصريف * كذلك ذلك الروح الحيوانى واحد واذا عمل بآلة العين كان فعله ابصارا واذا عمل بآلة الاذن كان فعله سمعا واذا عمل بآلة الانف كان فعله شما واذا عمل بآلة اللسان كان فعله ذوقا واذا عمل بالجلد واللحم كان فعله لمسا واذا عمل بالعضو كان فعله حركة واذا عمل بالكبد كان فعله غذاء واغتذاء ولكل واحد من هذه اعضاء تخدمه ولا يتم لشئ من هذه فعل الا بما يتصل اليها من ذلك الروح على الطرق التى تسمى عصبا ومتى انقطعت تلك الطرق او انسدت تعطل فعل ذلك العضو وهذه الاعصاب انما تستمد الروح من بطون الدماغ والدماغ يستمد الروح من القلب والدماغ فيه ارواح كثيرة لانه موضع تتوزع فيه اقسام كثيرة فاى عضو عدم هذا الروح بسبب من الاسباب تعطل فعله وصار بمنزلة الآلة المطرحة التى لا يصرفها الفاعل ولا ينتفع بها فان خرج هذا الروح بجملته عن الجسد أو فنى او تحلل بوجه من الوجوه تعطل الجسد كله وصار الى حالة الموت فانتهى به النظر الى هذا الحد من النظر على رأس ثلاثة اسابيع من منشئه وذلك احد وعشرون عاما وفى خلال هذه المدة المذكورة تفنن فى وجوه حيله واكتسى بجلود الحيوانات التى كان يشرحها واحتذى بها واتخذ الخيوط من الاشعار ولحا قصب الخطمية والخبازى والقنب وكل نبات ذى خيط وكان اصل اهتدائه الى ذلك انه اخذ من الحلفاء وعمل خطاطيف من الشوك القوى والقصب المحدد على الحجارة واهتدى الى البناء بما رأى من فعل الخطاطيف فاتخذ مخزنا وبيتا لفضلة غذائه وحصن عليه بباب من القصب المربوط بعضه الى بعض لئلا يصل اليه شئ من الحيوانات عند مغيبه عن تلك الجهة فى بعض شؤنه واستألف جوارح الطير ليستعين بها فى الصيد واتخذ الدواجن لينتفع ببيضها وفراخها واتخذ من صياصى البقر الوحشية شبه الاسنة وركبها فى القصب القوى وفى عصى الزان وغيرها واستعان فى ذلك بالنار وبحروف الحجارة حتى صارت شبه الرماح واتخذ ترسه من جلود مضاعفة كل ذلك لما رأى من عدمه السلاح الطبيعى ولما رأى ان يده تفى له بكل ما فاته من ذلك وكان لا يقاومه شئ من الحيوانات على اختلاف انواعها الا انها كانت تفر عنه فتعجزه هربا فكر فى وجه الحيلة فى ذلك فلم ير شيأ انجح له من ان يتألف بعض الحيوانات الشديدة العدو ويحسن اليها بالغذاء الذى يصلح لها حتى يتأتى له الركوب عليها ومطاردة سائر الاصناف بها وكان بتلك الجزيرة خيل برية وحمر وحشية فاتخذ منها ما يصلح له وراضها حتى كمل له بها غرضه وعمل عليها من الشرك والجلود أمثال الشكائم والسروج فتأتى له بذلك ما امله من طرد الحيوانات التى صعبت عليه الحيلة فى اخذها وانما تفنن فى هذه الامور كلها فى وقت اشتغاله بالتشريح وشهوته فى وقوفه على خصائص اعضاء الحيوان و بماذا تختلف وذلك فى المدة التى حددنا منتهاها باحد وعشرين عاما * ثم انه بعد ذلك أخذ فى مأخذ من النظر فتصفح جميع الاجسام التى فى عالم الكون والفساد من الحيوانات على اختلاف انواعها والنبات والمعادن واصناف الحجارة والتراب والماء والبخار والثلج والبرد والدخان والجليد واللهيب والجمر

قوله القنب بكسر القاف وكسكر نوع من الكتان اهـ م

فرأى لها اوصافا كثيرة وافعالا مختلفة وحركات متفقة ومتضادة وانعم النظر فى ذلك والتثبت فرأى انها تتفق ببعض الصفات وتختلف ببعض وانها من الجهة التى تتفق بها واحدة ومن الجهة التى تختلف فيها متغايرة ومتكثرة فكان تارة ينظر خصائص الاشياء وما يتفرد به بعضها عن بعض فتكثر عنده كثرة تخرج عن الحصر وينتشر له الوجود انتشارا لا ينضبط وكانت تتكثر عنده ايضا ذاته لانه كان ينظر الى اختلاف اعضائه وان كل واحد منها منفرد بفعل وصفة تخصه وكان ينظر الى كل عضو منها فيرى انه يحتمل القسمة الى اجزاء كثيرة جدا فيحكم على ذاته بالكثرة وكذلك على ذات كل شئ ثم كان يرجع الى نظر آخر من طريق ثان فيرى ان اعضاءه وان كانت كثيرة فهى متصلة كلها بعضها ببعض لا انفصال بينها بوجه فهى فى حكم الواحد وانها لا تختلف الا بحسب اختلاف افعالها وان ذلك الاختلاف انما هو بسبب ما يصل اليها من قوة الروح الحيوانى الذى انتهى اليه نظره اولا وان ذلك الروح واحد فى ذاته وهو ايضا حقيقة الذات وسائر الاعضاء كلها كالآلات فكانت تتحد عنده ذاته بهذا الطريق * ثم كان ينتقل الى جميع انواع الحيوان فيرى كل شخص منها واحدا بهذا النوع من النظر ثم كان ينظر الى نوع منها كالظباء والخيل والحمر واصناف الطير صنفا صنفا فكان يرى اشخاص كل نوع يشبه بعضه بعضا فى الاعضاء الظاهرة والباطنة والادراكات والحركات والمنازع ولا يرى بينها اختلافا الا فى أشياء يسيرة بالاضافة الى ما اتفقت فيه وكان يحكم بان الروح الذى لجميع ذلك النوع شئ واحد وانه لم يختلف الا انه انقسم على قلوب كثيرة وانه لو امكن ان يجمع جميع الذى افترق فى تلك القلوب منه ويجعل فى وعاء واحد لكان كله شيأ واحدا بمنزلة ماء واحد وشراب واحد تفرق على أوان كثيرة ثم يجمع بعد ذلك فهو فى حالتى تفريقه وجمعه شئ واحد وانما عرض له التكثر بوجه ما فكان يرى النوع كله بهذا النظر واحدا ويجعل كثرة أشخاصه بمنزلة كثرة اعضاء الشخص الواحد التى لم تكن كثيرة فى الحقيقة ثم كان يحضر انواع الحيوان كلها فى نفسه ويتأملها فيراها تتفق فى انها تحس وتغتذى وتتحرك بالارادة الى اى جهة شاءت وكان قد علم ان هذه الافعال هى اخص أفعال الروح الحيوانى به وان سائر الاشياء التى تختلف بها بعد هذا الاتفاق ليست شديدة الاختصاص بالروح الحيوانى * فظهر له بهذا التأمل ان الروح الحيوانى الذى لجميع جنس الحيوان واحد بالحقيقة وان كان فيه اختلاف يسير اختص به نوع دون نوع بمنزلة ماء واحد مقسوم على اوان كثيرة بعضها ابرد من بعض وهو فى اصله واحد وكل ما كان فى طبقة واحدة من البرودة فهو بمنزلة اختصاص ذلك الروح الحيوانى بنوع واحد وبعد ذلك فكما ان ذلك الماء كله واحد وكذلك الروح الحيوانى واحد وان عرض له التكثر بوجه ما فكان يرى جنس الحيوان كله واحدا بهذا النوع من النظر * ثم كان يرجع الى انواع النبات على اختلافها فيرى كل نوع منها تشبه اشخاصه بعضها بعضا فى الاغصان والورق والزهر والثمر والافعال فكان يقيسها بالحيوان ويعلم ان لها شيأ واحدا اشتركت فيه هو لها بمنزلة الروح الحيوانى وانها بذلك الشئ واحد وكذلك كان ينظر الى جنس النبات كله فيحكم باتحاده بحسب ما يراه من اتفاق فعله فى انه يغتذى وينمو ثم كان يجمع فى نفسه جنس الحيوان وجنس النبات فيراهما جميعا متفقين فى الاغتذاء والنمو الا ان الحيوان يزيد على

النبات بفضل الحس والادراك والتحرك وربما ظهر في النبات شئ شبيه به مثل تحول وجوه الزهر الى جهة الشمس وتحرك عروقه الى جهة الغذاء واشباه ذلك فظهر له بهذا التأمل ان النبات والحيوان شئ واحد بسبب شئ واحد مشترك بينهما هو في احدهما اتم واكمل وفي الآخر قد عاقه عائق ما وان ذلك بمنزلة ماء واحد قسم بقسمين احدهما جامد والآخر سيال فيتحد عنده النبات والحيوان * ثم ينظر الى الاجسام التي لا تحس ولا تغتذي ولا تنمو من الحجارة والتراب والماء والهواء واللهب فيرى انها اجسام مقدر لها طول وعرض وعمق وانها لا تختلف الا ان بعضها ذو لون وبعضها لا لون له وبعضها حار وبعضها بارد ونحو ذلك من الاختلاف وكان يرى ان الحار منها يصير باردا والبارد يصير حارا وكان يرى الماء يصير بخارا والبخار يصير ماء والاشياء المحترقة تصير جمرا ورمادا ولهيبا ودخانا والدخان اذا وافق في صعوده قبة حجر انعقد فيه وصار بمنزلة سائر الاشياء الارضية فيظهر له بهذا التأمل ان جميعها شئ واحد في الحقيقة وان لحقتها الكثرة بوجه ما فذلك مثل ما لحقت الكثرة للحيوان والنبات ثم ينظر الى الشئ الذي اتحد به عنده النبات والحيوان فيرى انه جسم مثل هذه الاجسام له طول وعرض وعمق وهو اما حار واما بارد كواحد من هذه الاجسام التي لا تحس ولا تتغذى وانما خالفها بافعاله التي تظهر عنه بالآلات الحيوانية والنباتية لا غير ولعل تلك الافعال ليست ذاتية وانما تسري اليه من شئ آخر ولو سرت الى هذه الاجسام الأخر لكانت مثله فكان ينظر اليه بذاته مجردا عن هذه الافعال التي تظهر ببادئ الرأي انها صادرة عنه فكان يرى انه ليس الا جسما من هذه الاجسام فيظهر له بهذا التأمل ان الاجسام كلها شئ واحد حيها وجمادها متحركها وساكنها الا انه يظهر ان لبعضها افعالا بآلات ولا يدري هل تلك الافعال ذاتية لها او سارية اليها من غيرها وكان في هذه الحال لا يرى شيأ غير الاجسام فكان بهذا الطريق يرى الموجود كله شيأ واحدا وبالنظر الاول يرى للموجود كثرة لا تنحصر ولا تتناهى وبقي بحكم هذه الحالة مدة ثم انه تأمل جميع الاجسام حيها وجمادها وهي التي هي عنده تارة شئ واحد وتارة كثيرة لا نهاية لها فرأى ان كل واحد منها لا يخلو من احد أمرين اما أن يتحرك الى جهة العلو مثل الدخان واللهيب والهواء اذا حصل تحت الماء واما ان يتحرك الى الجهة المضادة لتلك الجهة وهي جهة السفل مثل الماء وأجزاء الارض وأجزاء الحيوان والنبات وأن كل جسم من هذه الاجسام لن يعرى عن هاتين الحركتين وانه لا يسكن الا اذا منعه مانع يعوقه عن طريقه مثل الحجر النازل يصادف وجه الارض صلبا فلا يمكنه ان يخرقه ولو أمكنه ذلك لما انثنى عن حركته فيما يظهر ولذلك اذا رفعته وجدته يتحامل عليك بميله الى جهة السفل طالبا للنزول وكذلك الدخان في صعوده لا ينثني الا ان يصادف قبة صلبة تحبسه فحينئذ ينعطف يمينا وشمالا ثم اذا تخلص من تلك القبة خرق الهواء صاعدا لان الهواء لا يمكنه ان يحبسه * وكان يرى ان الهواء اذا ملئ به زق جلد وربط ثم غوص تحت الماء طلب الصعود وتحامل على من يمسكه تحت الماء ولا يزال يفعل ذلك حتى يوافي موضع الهواء وذلك بخروجه من تحت الماء فحينئذ يسكن ويزول عنه ذلك التحامل والميل الى جهة العلو الذي كان يوجد منه قبل ذلك ونظر هل يجد جسما يعرى عن احدى هاتين الحركتين أو الميل الى احداهما في وقت ما فلم يجد ذلك في الاجسام التي لديه وانما

طلب ذلك لانه طمع ان يجده فيرى طبيعة الجسم من حيث هو جسم دون ان يقترن به وصف
من الاوصاف التي هي منشأ التكثر * فلما اعياه ذلك ونظر الى الاجسام التي هي أقل الاجسام
حملا للاوصاف فلم يرها تعرى عن أحد هذين الوصفين بوجه وهما اللذان يعبر عنهما بالثقل
والخفة فنظر الى الثقل والخفة هل هما للجسم من حيث هو جسم اوهما لمعنى زائد على الجسمية
فظهر له انهما لمعنى زائد على الجسمية لانهما لو كانا للجسم من حيث هو جسم لما وجد جسم
الا وهما له ونحن نجد الثقيل لا توجد فيه الخفة والخفيف لا يوجد فيه الثقيل وهما لا محالة
جسمان ولكل واحد منهما معنى منفرد به عن الآخر زائد على جسميته وذلك المعنى هو الذي
به غاير كل واحد منهما الآخر ولولا ذلك لكانا شيأ واحدا من جميع الوجوه * فتبين له ان
حقيقة كل واحد من الثقيل والخفيف مركبة من معنيين أحدهما ما يقع فيه الاشتراك منهما
جميعا وهو معنى الجسمية والآخر ما تنفرد به حقيقة كل واحد منهما عن الآخر وهو اما الثقل
في أحدهما واما الخفة في الآخر المقترنان بمعنى الجسمية أي المعنى الذي يحرك أحدهما
علوا والآخر سفلا * وكذلك نظر الى سائر الاجسام من الجمادات والاحياء فرأى ان حقيقتها
وجود كل واحد منها مركبة من معنى الجسمية ومن شئ آخر زائد على الجسمية اما واحد واما
أكثر من واحد فلاحت له صور الاجسام على اختلافها وهو أول ما لاح له من العالم الى الروحاني
اذ هي صور لا تدرك بالحس وانما تدرك بضرب من النظر العقلي ولاح له في جملة ما لاح من ذلك
أن الروح الحيواني الذي مسكنه القلب (وهو الذي تقدم شرحه أولا) لا بد له أيضا من معنى
زائد على جسميته يصلح بذلك المعنى لان يعمل هذه الاعمال الغريبة التي تختص به من ضروب
الاحساسات وفنون الادراكات وأصناف الحركات وذلك المعنى هو صورته وفصله الذي
انفصل به عن سائر الاجسام وهو الذي يعبر عنه النظار بالنفس الحيوانية * وكذلك للشئ
الذي يقوم للنبات مقام الحار الغريزي للحيوان شئ يخصه هو فصله وهو الذي يعبر عنه النظار
بالنفس النباتية * وكذلك لجميع أجسام الجمادات وهي ما عدا الحيوان والنبات مما في عالم
الكون والفساد شئ يخصها به يفعل كل واحد منها فعله الذي يختص به مثل صنوف الحركات
وصدور الكيفيات المحسوسة عنها وذلك الشئ هو فصل كل واحد منها وهو الذي يعبر النظار
عنه بالطبيعة * فلما وقف بهذا النظر على أن حقيقة الروح الحيواني الذي كان تشوقه اليه
أبدا مركبة من معنى الجسمية ومن معنى آخر زائد على الجسمية وأن معنى هذه الجسمية مشترك
له ولسائر الاجسام والمعنى الآخر المقترن به ينفرد به هو وحده هان عنده معنى الجسمية
فاطرحه وتعلق فكره بالمعنى الثاني وهو الذي يعبر عنه بالنفس فتشوق الى التحقق به فالتزم
الفكرة فيه وجعل مبدأ النظر في ذلك تصفح الاجسام كلها لا من جهة ما هي أجسام بل من
جهة ما هي ذوات صور تلزم عنها خواص و ينفصل بها بعضها عن بعض فتتبع ذلك وحصره
في نفسه فرأى أن جملة الاجسام تشترك في صورة تصدر عنها الافعال ورأى فريقا من تلك الجملة
مع مشاركته لها في تلك الصورة يزيد عليها بصورة أخرى تصدر عنها افعال خاصة به ورأى
طائفة من ذلك الفريق مع مشاركتها له في الصورة الاولى والثانية تزيد عليه بصورة ثالثة
تصدر عنها افعال خاصة بها * مثال ذلك ان الاجسام الارضية كلها مثل التراب والحجارة
والمعادن والنبات والحيوان وسائر الاجسام الثقيلة هي جملة واحدة تشترك في صورة واحدة

تصدر عنها الحركة الى أسفل مالم يعقها عائق عن النزول ومتى حركت الى جهة العلو بالقسر ثم تركت تحركت بصورتها الى أسفل * وفريق من هذه الجملة وهو النبات والحيوان مع مشاركته الجملة المتقدمة فى تلك الصورة يزيد عليها صورة أخرى يصدر عنها التغذى والنمو * والتغذى هو ان يخلف المغتذى بدل ماتحلل بالفعل منه بواسطة القوة الغاذية التى تحيل ماحصل له كمال الاستعداد بسبب القوة الهاضمة من الغذاء بالقوة الواصل بواسطة الجاذبة الى مشاكلة جوهر المغتذى حفظا لشخصه وتكميلا لمقداره والنمو هو الزيادة بواسطة القوة النامية وهى التى تزيد فى أقطار الجسم أعنى الطول والعرض والعمق على التناسب الطبيعى بما تدخل فى أجزائه من الغذاء * فهذان الفعلان عامان للنبات والحيوان وهما لا محالة صادران عن صورة مشتركة لهما وهى المعبر عنها بالنفس * وطائفة من هذا الفريق وهو الحيوان خاصة مع مشاركته الفريق المتقدم فى الصورة الاولى والثانية تزيد عليه بصورة ثالثة يصدر عنها الحس والتنقل من حيز الى آخر * ورأى كل نوع من أنواع الحيوان له خاصية يختاز بها عن سائر الانواع وينفصل بها متميزا عنها فعلم ان ذلك صادر له عن صورة تخصه هى زائدة عن معنى الصورة المشتركة له ولسائر الحيوان وكذلك لكل واحد من أنواع النبات مثل ذلك * فتبين له ان هذه الاجسام المحسوسات التى فى عالم الكون والفساد بعضها تلتئم حقيقته من معان كثيرة زائدة على معنى الجسمية وبعضها من معان أقل وعلم ان معرفة الاقل أسهل من معرفة الاكثر فطلب اولا الوقوف على حقيقة الشئ الذى تلتئم حقيقته من اقل الاشياء ورأى ان الحيوان والنبات لا تلتئم حقائقهما الا من معان كثيرة لتفنن افعالهما فاخر التفكر فى صورهما وكذلك رأى ان أجزاء الارض بعضها ابسط من بعض فقصد منها ابسط ماقدر عليه وكذلك رأى ان الماء شئ قليل التركيب لقلة مايصدر عن صورته من الافعال وكذلك راى النار والهواء * وقد كان سبق الى ظنه اولا ان هذه الاربعة يستحيل بعضها الى بعض وان لها شيأ واحدا تشترك فيه وهو معنى الجسمية وان ذلك الشئ ينبغى ان يكون خلوا من المعانى التى تميز بها كل واحد من الاربعة عن الآخر فلا يمكن ان يتحرك الى فوق ولا الى اسفل ولا ان يكون حارا ولا باردا ولا ان يكون رطبا ولا يابسا لان كل واحد من هذه الاوصاف لا يعم جميع الاجسام فليست اذن للجسم بما هو جسم فاذا امكن وجود جسم لا صورة فيه زائدة على الجسمية فليس تكون فيه صفة من هذه الصفات ولا يمكن ان تكون فيه صفة الا وهى تعم سائر الاجسام المتصورة بضروب الصور فنظر هل يجد وصفا واحدا يعم جميع الاجسام حيها وجامدها فلم يجد شيأ يعم الاجسام كلها الا معنى الامتداد الموجود فى جميعها فى الاقطار الثلاثة التى يعبر عنها بالطول والعرض والعمق فعلم ان هذا المعنى هو للجسم من حيث هو جسم لكنه لم يتأت له بالحس وجود جسم بهذه الصفة وحدها حتى لا يكون فيه معنى زائد على الامتداد المذكور ويكون بالجملة خلوا من سائر الصور * ثم تفكر فى هذا الامتداد الى الاقطار الثلاثة هل هو معنى الجسم بعينه وليس ثم معنى آخر اوليس كذلك فرأى ان وراء هذا الامتداد معنى آخر هو الذى يوجد فيه هذا الامتداد وان الامتداد وحده لا يمكن ان يقوم بنفسه كما ان ذلك الشئ الممتد يمكن ان يقوم بنفسه دون امتداد واعتبر ذلك ببعض الاجسام المحسوسة ذوات الصور كالطين

مثلا فرأى انه اذا عمل منه شكل كالكرة مثلا كان له طول وعرض وعمق على قدر ثم ان تلك الكرة بعينها لو اخذت وردت الى شكل مكعب او بيضي لتبدل ذلك الطول وذلك العرض وذلك العمق وصارت على قدر آخر غير الذي كانت عليه والطين واحد بعينه لم يتبدل غير انه لابد له من طول وعرض وعمق على اي قدر كان ولا يمكن ان يعرى عنها غير انها لتعاقبها عليه تبين له انها معنى على حياله ولكونه لا يعرى بالجملة عنها تبين له انها من حقيقته * فلاح له بهذا الاعتبار ان الجسم بما هو جسم مركب على الحقيقة من معنيين (احدهما) يقوم منه مقام الطين للكرة في هذا المثال (والآخر) يقوم مقام طول الكرة وعرضها وعمقها او المكعب او اي شكل كان به وانه لا يفهم الجسم الا مركبا من هذين المعنيين وان احدهما لا يستغنى عن الآخر لكن الذي يمكن أن يتبدل و يتعاقب على اوجه كثيرة (وهو معنى الامتداد) يشبه الصورة التي لسائر الاجسام ذوات الصور والذي يثبت على حال واحدة (وهو الذي ينزل منزلة الطين المتقدم) يشبه معنى الجسمية التي لسائر الاجسام ذوات الصور * وهذا الشئ الذي هو بمنزلة الطين في هذا المثال هو الذي يسميه النظار المادة والهيولى وهي عارية عن الصور جملة * فلما انتهى نظره الى هذا الحد وفارق المحسوس بعض مفارقة وأشرف على تخوم العالم العقلي استوحش وحن الى ما الفه من عالم الحس فتقهقر قليلا وترك الجسم على الاطلاق اذ هو امر لا يدركه الحس ولا يقدر على تناوله واخذ ابسط الاجسام المحسوسة التي شاهدها وهي تلك الاربعة التي كان قد وقف نظره عليها فاول ما نظر الى الماء فرأى انه اذا خلي وما تقتضيه صورته ظهر منه برد محسوس وطلب النزول الى اسفل فاذا اسخن اما بالنار واما بحرارة الشمس زال عنه البرد اولا وبقي فيه طلب النزول فاذا افرط عليه بالتسخين زال عنه طلب النزول الى اسفل وصار يطلب الصعود الى فوق فزال عنه بالجملة الوصفان اللذان كانا ابدا يصدران عنه عن صورته ولم يعرف من صورته اكثر من صدور هذين الفعلين عنها فلما زال هذان الفعلان بطل حكم الصورة فزالت الصورة المائية عن ذلك الجسم عند ما ظهرت منه افعال من شانها ان تصدر عن صورة أخرى وحدثت له صورة أخرى بعد ان لم تكن وصدر عنه بها أفعال لم تكن من شأنها ان تصدر عنه وهو بصورته الاولى * فعلم بالضرورة ان كل حادث لا بد له من محدث فارتسم في نفسه بهذا الاعتبار فاعل للصورة ارتساما على العموم دون تفصيل * ثم انه تتبع الصور التي كان قد علمها قبل ذلك صورة صورة فرأى انها كلها حادثة وانها لا بد لها من فاعل ثم انه نظر الى ذوات الصور فلم ير أنها شئ أكثر من استعداد الجسم لان يصدر عنه ذلك الفعل مثل الماء فانه اذا أفرط عليه التسخين استعد للحركة الى فوق وصلح لها فذلك الاستعداد هو صورته اذ ليس ههنا الا جسم وأشياء تحس عنه بعد ان لم تكن مثل الكيفيات والحركات وفاعل يحدثها بعد ان لم تكن فصلوح الجسم لبعض الحركات دون بعض هو استعداده بصورته ولاح له مثل ذلك في جميع الصور فتبين له ان الافعال الصادرة عنها ليست في الحقيقة لها وانما هي لفاعل يفعل بها الافعال المنسوبة اليها (وهذا المعنى الذي لاح له هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به وفي محكم التنزيل فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى) فلما لاح له من أمر هذا الفاعل ما لاح على الاجمال دون تفصيل حدث له شوق حثيث الى معرفته على التفصيل وهو بعد لم يكن

فارق

فارق عالم الحس بجملته يطلب هذا الفاعل المختار من جهة المحسوسات وهو لا يعلم بعد هل هو
واحد او كثير فتصفح جميع الاجسام التى لديه وهى التى كانت فكرته أبدا فيها فرآها كلها تتكون
تارة وتفسد أخرى وما لم يقف على فساد جملته وقف على فساد أجزائه مثل الماء والارض فانه
رأى أجزاءهما تفسد بالنار وكذلك الهواء رآه يفسد بشدة البرد حتى يتكون منه ثلج فيسيل ماء
وكذلك سائر الاجسام التى كانت لديه لم ير منها شيأ بريئا عن الحدوث والافتقار الى الفاعل
المختار فاطرحها كلها وانتقلت فكرته الى الاجسام السماوية (وانتهى الى هذا النظر على
رأس أربعة أسابيع من منشئه وذلك ثمانية وعشرون عاما) فعلم ان السماء وما فيها من
الكواكب أجسام لانها ممتدة فى الاقطار الثلاثة الطول والعرض والعمق لا ينفك شئ منها عن
هذه الصفة وكل ما لا ينفك عن هذه الصفة فهو جسم فهى اذن كلها اجسام ثم تفكر هل هى
ممتدة الى غير نهاية وذاهبة أبدا فى الطول والعرض والعمق الى غير نهاية او هى متناهية
محدودة بحدود تنقطع عندها ولا يمكن ان يكون وراءها شئ من الامتداد فتحير فى ذلك بعض
حيرة * ثم انه بقوة فطرته وذكاء خاطره رأى ان جسما لا نهاية له باطل وشئ لا يمكن ومعنى لا يعقل
وتقوى هذا الحكم عنده بحجج كثيرة سنحت له بينه وبين نفسه وذلك انه قال * اما هذا الجسم
السماوى فهو متناه من الجهة التى تلينى والناحية التى وقع عليها حسى فهذا لا اشك فيه
لانى أدركه ببصرى * واما الجهة التى تقابل هذه الجهة وهى التى يداخلنى فيها الشك فانى
أيضا أعلم انه من المحال ان تمتد الى غير نهاية لانى ان تخيلت ان خطين اثنين يبتدآن من هذه
الجهة المتناهية ويمران فى سمك الجسم الى غير نهاية حسب امتداد الجسم ثم تخيلت ان أحد
هذين الخطين قطع منه جزء كبير من ناحية طرفه المتناهى ثم أخذ ما بقى منه وأطبق طرفه
الذى كان فيه موضع القطع على طرف الخط الذى لم يقطع منه شئ وأطبق الخط المقطوع منه
على الخط الذى لم يقطع منه شئ وذهب الذهن كذلك معهما الى الجهة التى يقال انها غير
متناهية فاما ان نجد الخطين أبدا يمتدان الى غير نهاية ولا ينقص أحدهما عن الآخر فيكون
الذى قطع منه جزء مساويا للذى لم يقطع منه شئ وهو محال واما ان لا يمتد الناقص معه أبدا
بل ينقطع دون مذهبه ويقف عن الامتداد معه فيكون متناهيا فاذا رد عليه القدر الذى قطع
منه أولا وقد كان متناهيا صار كله متناهيا وحينئذ لا يقصر عن الخط الآخر الذى لم يقطع
منه شئ ولا يفضل عليه فيكون اذن مثله وهو متناه فذلك أيضا متناه (فالجسم الذى تفرض
فيه هذه الخطوط متناه وكل جسم يمكن ان تفرض فيه هذه الخطوط فكل جسم متناه فاذا
فرضنا أن جسما غير متناه فقد فرضنا باطلا ومحالا (فلما صح عنده بفطرته الفائقة التى
تنبهت لمثل هذه الحجة) أن جسم السماء متناه أراد ان يعرف على أى شكل هو وكيفية
انقطاعه بالسطوح التى تحده فنظر أولا الى الشمس والقمر وسائر الكواكب فرآها كلها تطلع
من جهة المشرق وتغرب من جهة المغرب فما كان منها يمر على سمت رأسه رآه يقطع دائرة
عظمى وما مال عن سمت رأسه الى الشمال أو الى الجنوب رآه يقطع دائرة اصغر من تلك وما
كان أبعد عن سمت الرأس الى احد الجانبين كانت دائرته اصغر من دائرة ما هو اقرب حتى
كانت اصغر الدوائر التى تتحرك عليها الكواكب دائرتين اثنتين احداهما حول القطب
الجنوبى وهى مدار سهيل والاخرى حول القطب الشمالى وهى مدار الفرقدين ولما كان مسكنه

على خط الاستواء الذى وصفناه اولا كانت هذه الدوائر كلها قائمة على سطح افقه ومتشابهة الاحوال فى الجنوب والشمال وكان القطبان معا ظاهرين له وكان يترقب اذا طلع كوكب من الكواكب على دائرة كبيرة وطلع كوكب اخر على دائرة صغيرة وكان طلوعهما معا فكان يرى غروبهما معا واطرد له ذلك فى جميع الكواكب وفى جميع الاوقات فتبين له بذلك ان الفلك على شكل الكرة وقوى ذلك فى اعتقاده ما رآه من رجوع الشمس والقمر وسائر الكواكب الى المشرق بعد مغيبها بالمغرب وما رآه ايضا من انها تظهر لبصره على قدر واحد من العظم فى حال طلوعها وتوسطها وغروبها وانها لو كانت حركتها على غير شكل الكرة لكانت لا محالة فى بعض الاوقات اقرب الى بصره منها فى وقت اخر ولو كانت كذلك لكانت مقاديرها واعظامها تختلف عند بصره فيراها فى حال القرب اعظم مما يراها فى حال البعد لاختلاف ابعادها عن مركزه حينئذ بخلافها على الاول فلما لم يكن شئ من ذلك تحقق عنده كرية الشكل ومازال يتصفح حركة القمر فيراها آخذة من المغرب الى المشرق وحركات الكواكب السيارة كذلك حتى تبين له قدر كبير من علم الهيئة وظهر له ان حركاتها لا تكون الا بافلاك كثيرة كلها مضمنة فى فلك واحد هو اعلاها وهو الذى يحرك الكل من المشرق الى المغرب فى اليوم والليلة (وشرح كيفية انتقاله ومعرفة ذلك يطول وهو مثبت فى الكتب ولا يحتاج منه فى غرضنا الا القدر الذى اوردناه) فلما انتهى الى هذه المعرفة ووقف على ان الفلك بجملته وما يحتوى عليه كشئ واحد متصل بعضه ببعض وان جميع الاجسام التى كان ينظر فيها اولا كالارض والماء والهواء والنبات والحيوان وما شاكلها هى كلها فى ضمنه وغير خارجة عنه وانه كله اشبه شئ بشخص من اشخاص الحيوان وما فيه من الكواكب المنيرة هى بمنزلة حواس الحيوان وما فيه من ضروب الافلاك المتصل بعضها ببعض هى بمنزلة اعضاء الحيوان وما فى داخله من عالم الكون والفساد هى بمنزلة ما فى جوف الحيوان من اصناف الفضول والرطوبات التى كثيرا ما يتكون فيها ايضا حيوان كما يتكون فى العالم الاكبر* فلما تبين له انه كله كشخص واحد فى الحقيقة قائم محتاج الى فاعل مختار واتحدت عنده اجزاؤه الكثيرة بنوع من النظر الذى الذى اتحدت به عنده الاجسام التى فى عالم الكون والفساد تفكر فى العالم بجملته هل هو شئ حدث بعد ان لم يكن وخرج الى الوجود بعد العدم أو هو أمر كان موجودا فيما سلف ولم يسبقه العدم بوجه من الوجوه فتشكك فى ذلك ولم يترجح عنده احد الحكمين على الآخر* وذلك انه كان اذا ازمع على اعتقاد القدم اعترضته عوارض كثيرة من استحالة وجود لا نهاية له بمثل القياس الذى استحال عنده به وجود جسم لا نهاية له* وكذلك كان يرى ان هذا الوجود لا يخلو من الحوادث فهو لا يمكن تقدمه عليها وما لا يمكن ان يتقدم على الحوادث فهو ايضا محدث* واذا ازمع على اعتقاد الحدوث اعترضته عوارض اخر* وذلك انه كان يرى ان معنى حدوثه بعد ان لم يكن لا يفهم الا على معنى ان الزمان تقدمه والزمان من جملة العالم وغير منفك عنه فاذن لا يفهم تأخر العالم عن الزمان * وكذلك كان يقول اذا كان حادثا فلا بد له من محدث وهذا المحدث الذى احدثه لم احدثه الآن ولم يحدثه قبل ذلك ألطارئ طرأ عليه ولا شئ هنالك غيره ام تغير حدث فى ذاته فان كان فما الذى احدث ذلك التغير ومازال

يتفكر

يتفكر في ذلك عدة سنين فتتعارض عنده الحجج ولا يترجح عنده احد الاعتقادين على الآخر فلما اعياه ذلك جعل يتفكر ما الذى يلزم عن كل واحد من الاعتقادين فلعل اللازم عنهما يكون شيا واحدا فرأى انه ان اعتقد حدوث العالم وخروجه الى الوجود بعد العدم فاللازم عن ذلك ضرورة انه لا يمكن ان يخرج الى الوجود بنفسه وانه لا بد له من فاعل يخرجه الى الوجود وان ذلك الفاعل لا يمكن ان يدرك بشئ من الحواس لانه لو ادرك بشئ من الحواس لكان جسما من الاجسام ولو كان جسما من الاجسام لكان من جملة العالم وكان حادثا واحتاج الى محدث ولو كان ذلك المحدث الثانى ايضا جسما لاحتاج الى محدث ثالث والثالث الى رابع ويتسلسل ذلك الى غير نهاية وهو باطل فاذن لا بد للعالم من فاعل ليس بجسم واذا لم يكن جسما فلا سبيل الى ادراكه بشئ من الحواس لان الحواس الخمس لا تدرك الا الاجسام او ما يلحق الاجسام واذن لا يمكن ان يحس فلا يمكن ان يتخيل لان التخيل ليس شيا الا احضار صور المحسوسات بعد غيبها واذا لم يكن جسما فصفات الاجسام كلها تستحيل عليه واول صفات الاجسام هو الامتداد فى الطول والعرض والعمق وهو منزه عن ذلك وعن جميع ما يتبع هذا الوصف من صفات الاجسام واذا كان فاعلا للعالم فهو لا محالة قادر عليه وعالم به * (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) * ورأى ايضا انه ان اعتقد قدم العالم وان العدم لم يسبقه وانه لم يزل كما هو فان اللازم عن ذلك ان حركته قديمة لانها لا نهاية لها من جهة الابتداء اذ هى لم يسبقها سكون يكون مبدؤها منه وكل حركة لا بد لها من محرك ضرورة والمحرك اما ان يكون قوة سارية فى جسم من الاجسام اما جسم المتحرك نفسه واما جسم آخر خارج عنه واما ان تكون قوة ليست سارية ولا شائعة فى جسم وكل قوة سارية فى جسم وشائعة فيه فانها تنقسم بانقسامه وتتضاعف بتضاعفه مثل الثقل فى الحجر مثلا المحرك له الى اسفل فانه ان قسم الحجر نصفين انقسم ثقله نصفين وان زيد عليه آخر مثله زاد فى الثقل آخر مثله فان امكن ان يتزايد الحجر أبدا الى غير نهاية كان تزايد هذا الثقل الى غير نهاية وان وصل الحجر الى حد ما من العظم ووقف وصل الثقل ايضا الى ذلك الحد ووقف لكنه قد تبرهن ان كل جسم لا محالة متناه فاذن كل قوة فى جسم لا محالة متناهية فان وجدنا قوة تفعل فعلا لا نهاية له فهى قوة ليست فى جسم وقد وجدنا الفلك يتحرك ابدا حركة لا نهاية لها ولا انقطاع اذ فرضناه قديما لا ابتداء له فالواجب على ذلك ان تكون القوة التى تحركه ليست فى جسمه ولا فى جسم خارج عنه فهى اذن لشئ برئ عن الاجسام وغير موصوف بشئ من اوصاف الجسمية وقد كان لاح له فى نظره الاول فى عالم الكون والفساد ان حقيقة وجود كل جسم انما هى من جهة صورته التى هى استعداده لضروب الحركات وان وجوده الذى له من جهة مادته وجود ضعيف لا يكاد يدرك فاذن وجود العالم كله انما هو من جهة استعداده لتحريك هذا المحرك البرئ عن المادة وعن صفات الاجسام المنزه عن ان يدركه حس او يتطرق اليه خيال سبحانه واذا كان فاعلا لحركات الفلك على اختلاف انواعها فعلا لا تفاوت فيه ولا فتور فهو لا محالة قادر عليه وعالم به فانتهى نظره بهذا الطريق الى ما انتهى اليه بالطريق الاول ولم يضره فى ذلك تشككه فى قدم العالم او حدوثه وصح له على الوجهين جميعا وجود فاعل غير جسم ولا متصل بجسم ولا منفصل عنه ولا داخل فيه ولا خارج عنه اذ الاتصال

والانفصال والدخول والخروج هي كلها من صفات الاجسام وهو منزه عنها
ولما كانت المادة من كل جسم مفتقرة الى الصورة اذ لا تقوم الا بها ولا تثبت لها حقيقة
دونها وكانت الصورة لا يصح وجودها الا من قبل هذا الفاعل المختار تبين له افتقار
جميع الموجودات في وجودها الى هذا الفاعل وانه لا قيام لشيء منها الا به فهو اذن علة
لها [illegible] معلولة [illegible] سواء كانت محدثة الوجود بعد ان سبقها العدم او كانت لا ابتداء لها من
[illegible] ولا سبقها العدم قط فانها على كلا الحالين معلولة ومفتقرة الى الفاعل
متعلقة [illegible] بوجوده ولولا دوامه لم تدم ولولا وجوده لم توجد ولولا قدمه لم تكن
قديمة وهو في ذاته غني عنها وبريء منها وكيف لا يكون كذلك وقد تبرهن ان قدرته وقوته
غير متناهية وان جميع الاجسام وما يتصل بها او يتعلق بها ولو بعض تعلق هو متناه
منقطع فاذن العالم كله بما فيه من السموات والكواكب وما بينها وما فوقها وما تحتها فعله
وخلقه ومتأخر عنه بالذات وان كانت غير متأخرة بالزمان كما انك اذا اخذت في قبضتك
جسما من الاجسام ثم حركت يدك فان ذلك الجسم لا محالة يتحرك تابعا لحركة يدك حركة
متاخرة عن حركة يدك تاخرا بالذات وان كانت لم تتاخر بالزمان عنها بل كان ابتداؤهما معا
فكذلك العالم كله معلول ومخلوق لهذا الفاعل بغير زمان * (انما امره اذا اراد شيا ان يقول
له كن فيكون) * فلما رأى ان جميع الموجودات فعله تصفحها من قبل ذات تصفحا على
طريق الاعتبار في قدرة فاعلها [illegible] يتعجب من غريب صنعته ولطيف حكمته ودقيق علمه
فتبين له في [illegible] الموجودة فضلا عن اكثرها من اثار الحكمة وبدائع الصنعة
ما قضى منه كل العجب وتحقق عنده ان ذلك لا يصدر الا عن فاعل مختار في غاية الكمال
* (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ولا اصغر من ذلك ولا اكبر) * ثم تامل في
جميع اصناف الحيوان كيف اعطى كل شيء خلقه ثم هداه لاستعماله فلولا انه هداه
لاستعمال تلك الاعضاء التي خلقت له في وجوه المنافع المقصودة بها لما انتفع بها الحيوان
وكانت كلا عليه فعلم بذلك انه اكرم الكرماء وارحم الرحماء * ثم انه مهما نظر شيا من
الموجودات [illegible] او قوة او فضيلة من الفضائل اي فضيلة كانت تفكر وعلم
انها من [illegible] الفاعل المختار جل جلاله ومن جوده ومن فعله فعلم ان الذي له هو في ذاته
اعظم منها [illegible] واحسن وادوم وانه لا نسبة لهذه الى تلك فما زال يتتبع
صفات [illegible] وصادرة عنه ويرى انه احق بها من كل من يوصف بها دونه
وتتبع [illegible] منها ومنزه عنها وكيف لا يكون بريئا عنها وليس
معنى النقص [illegible] وكيف يكون للعدم تعلق او تلبس بمن هو
الموجود [illegible] الذي اعطى كل ذي وجود وجوده فلا وجود الا هو فهو
الوجود [illegible] وهو البهاء وهو القدرة وهو العلم وهو هو وكل شيء
هالك الا وجهه [illegible] هذا الحد على رأس خمسة اسابيع من منشئه وذلك
خمسة [illegible] في [illegible] من امر هذا الفاعل ما شغله عن الفكرة في كل شيء
[illegible] الموجودات والبحث عنها حتى صار بحيث لا يقع بصره
على شيء [illegible] فينتقل بفكره على الفور الى الصانع ويترك
المصنوع

المصنوع حتى اشتد شوقه اليه وانزعج قلبه بالكلية عن العالم الادنى المحسوس وتعلق بالعالم
الارفع المعقول فلما حصل له العلم بهذا الموجود الرفيع الثابت الوجود الذى لا سبب لوجوده
وهو سبب لوجود جميع الاشياء اراد ان يعلم باى شئ حصل له هذا العلم وباى قوة ادرك هذا
الموجود فتصفح حواسه كلها وهى السمع والبصر والشم والذوق واللمس فرأى انها كلها
لا تدرك شيأ الا جسما او ما هو فى جسم وذلك ان السمع انما يدرك المسموعات وهى ما يحدث من
تموج الهواء عند تصادم الاجسام والبصر انما يدرك الالوان والشم يدرك الروائح والذوق
يدرك الطعوم واللمس يدرك الصلابة واللين والخشونة والملاسة وكذلك القوة الخيالية لا تدرك
شيأ الا ان يكون له طول وعرض وعمق وهذه المدركات كلها من صفات الاجسام وليس لهذه
الحواس ادراك شئ سواها وذلك لانها قوى شائعة فى الاجسام ومنقسمة بانقسامها فهى لذلك
لا تدرك الا جسما منقسما لان هذه القوة اذا كانت شائعة فى شئ منقسم فلا محالة انها
ادركت شيأ من الاشياء فانه ينقسم بانقسامها فاذن كل قوة فى جسم فانها لا تدرك الا جسما
أو ما هو فى جسم وقد تبين ان هذا الموجود الواجب الوجود برئ من صفات الاجسام من
جميع الجهات فاذن لا سبيل الى ادراكه الا بشئ ليس بجسم ولا هو قوة فى جسم ولا تعلق له
بوجه من الوجوه بالاجسام ولا هو داخل فيها ولا خارج عنها ولا متصل بها ولا منفصل
عنها وقد كان تبين انه ادركه بذاته ورسخت المعرفة به عنده فتبين له بذلك ان ذاته التى ادركه
بها امر غير جسمانى ولا يجوز عليه شئ من صفات الاجسام وان كل ما يدركه من ظاهر ذاته
من الجسمانيات ليست حقيقة ذاته وانما حقيقة ذاته ذلك الشئ الذى ادرك به الموجود المطلق
الواجب الوجود فلما علم ان ذاته ليست هذه المتجسمة التى يدركها بحواسه ويحيط بها اديمه
هان عنده بالجملة جسمه وجعل يتفكر فى تلك الذات الشريفة التى أدرك بها ذلك الموجود
الشريف الواجب الوجود ونظر بذاته فى تلك الذات الشريفة هل يمكن ان تبيد أو تفسد
وتضمحل او هى دائمة البقاء فرأى ان الفساد والاضمحلال انما هو من صفات الاجسام بان
تخلع صورة وتلبس أخرى مثل الماء اذا صار هواء والهواء اذا صار ماء والنبات اذا صار ترابا
او رمادا والتراب اذا صار نباتا فهذا هو معنى الفساد وأما الشئ الذى ليس بجسم ولا يحتاج فى
قوامه الى الجسم وهو منزه بالجملة عن الجسمانيات فلا يتصور فساده البتة فلما ثبت له ان ذاته
الحقيقية لا يمكن فسادها اراد ان يعلم كيف يكون حالها اذا اطرحت البدن وتخلت عنه وقد
كان تبين له انها لا تطرحه الا اذا لم يصلح آلة لها فتصفح جميع القوى المدركة فرأى كل
واحدة منها تارة تكون مدركة بالقوة وتارة تكون مدركة بالفعل مثل العين فى حال
تغميضها او اعراضها عن المبصر فانها تكون مدركة بالقوة (ومعنى مدركة بالقوة انها
لا تدرك الآن وتدرك فى المستقبل وفى حال فتحها واستقبالها للمبصر تكون مدركة بالفعل
ومعنى مدركة بالفعل انها الآن تدرك وكذلك كل واحدة من هذه القوى تكون بالقوة
وتكون بالفعل وكل واحدة من هذه القوى ان كانت لم تدرك قط بالفعل فهى ما دامت بالقوة
لا تتشوق الى ادراك الشئ المخصوص لانها لم تتعرف به بعد مثل من خلق مكفوف البصر
وان كانت قد أدركت بالفعل تارة ثم صارت بالقوة فانها ما دامت بالقوة تشتاق الى الادراك
بالفعل لانها قد تعرفت بذلك المدرك وتعلقت به وحنت اليه مثل من كان بصيرا ثم عمى فانه

لايزال يشتاق الى المبصرات وبحسب مايكون الشئ المدرك اتم وابهى واحسن يكون الشوق اليه أكثر والتألم لفقده اعظم ولذلك كان تألم من يفقد بصره بعد الرؤية اعظم من تألم من يفقد شمه اذ الاشياء التى يدركها البصر اتم واحسن من التى يدركها الشم فان كان فى الاشياء شئ لانهاية لكماله ولا غاية لحسنه وجماله وبهائه وهو فوق البهاء والحسن وليس فى الوجود كمال ولاحسن ولا بهاء ولا جمال الاصادر من جهته وفائض من قبله فمن فقد ادراك ذلك الشئ بعد ان تعرف به فلاشك انه مادام فاقداله يكون فى آلام لانهاية لها كما ان من كان مدركا له على الدوام فانه يكون فى لذة لا انفصام لها وغبطة لاغاية وراءها وبهجة وسرور لانهاية لها وقد كان تبين له ان الموجود الواجب الوجود متصف باوصاف الكمال كلها ومنزه عن صفات النقص وبرئ منها وتبين له ان الشئ الذى به يتوصل الى ادراكه امر لايشبه الاجسام ولا يفسد لفسادها فظهر له بذلك ان من كانت له مثل هذه الذات المعدة لمثل هذا الادراك فانه اذا اطرح البدن بالموت فاما ان يكون قبل ذلك فى مدة تصريفه للبدن لم يتعرف قط بهذا الموجود الواجب الوجود ولا اتصل به ولا سمع عنه فهذا اذا فارق البدن لا يتصل بذلك الموجود ولا يتألم لفقده * واما جميع القوى الجسمانية فانها تبطل ببطلان الجسم فلا تشتاق ايضا الى مقتضيات تلك القوى ولا تحن اليها ولا تتألم لفقدها وهذه حالة البهائم غير الناطقة كلها سواء كانت على صورة الانسان اولم تكن * واما ان يكون قبل ذلك فى مدة تصريفه للبدن قد تعرف بهذا الموجود وعلم ماهو عليه من الكمال والعظمة والسلطان والقدرة الا انه اعرض عنه واتبع هواه حتى وافته منيته وهو على تلك الحال فيحرم المشاهدة وعنده الشوق اليها فيبقى فى عذاب طويل وآلام لانهاية لها فاما ان يتخلص من تلك الآلام بعد جهد طويل ويشاهد ما تشوق اليه قبل ذلك واما ان يبقى فى آلامه بقاء سرمديا بحسب استعداده لكل واحد من الوجهين فى حياته الجسمانية * واما من تعرف بهذا الموجود الواجب الوجود قبل ان يفارق البدن واقبل بكليته عليه والتزم الفكرة فى جلاله وحسنه وبهائه ولم يعرض عنه حتى وافته منيته وهو على حال من الاقبال والمشاهدة بالفعل فهو اذا فارق البدن بقى فى لذة لانهاية لها وغبطة وسرور وفرح دائم لاتصال مشاهدته لذلك الموجود الواجب الوجود وسلامة تلك المشاهدة من الكدر والشوائب ويزول عنه ما تقتضيه هذه القوى الجسمانية من الامور الحسية التى هى بالاضافة الى تلك الحال آلام وشرور وعوائق فلما تبين له ان كمال ذاته ولذتها انما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام مشاهدة بالفعل ابدا حتى لايعرض عنه طرفة عين لكى توافيه منيته وهو فى حال المشاهدة بالفعل فتتصل لذته دون ان يتخللها ألم (واليه اشار الجنيد شيخ الصوفية وامامهم عند موته بقوله لاصحابه هذا وقت يؤخذ منه الله أكبر واحرم للصلاة) ثم جعل يتفكر كيف يتأتى له دوام هذه المشاهدة بالفعل حتى لايقع منه اعراض فكان يلازم الفكرة فى ذلك الموجود كل ساعة فما هو الا ان يسنح لبصره محسوس ما من المحسوسات او يخرق سمعه صوت بعض الحيوان او يعترضه خيال من الخيالات او يناله الم فى احد اعضائه او يصيبه الجوع او العطش او البرد او الحر او يحتاج الى القيام لدفع فضوله فتختل فكرته ويزول عما كان فيه ويتعذر عليه الرجوع الى ما كان عليه من حال المشاهدة الا بعد جهد وكان يخاف ان تفجأه

منيته وهو في حال الاعراض فيفضي الى الشقاء الدائم والم الحجاب فساءه حاله ذلك واعياه الدواء فجعل يتصفح انواع الحيوانات كلها وينظر افعالها وما تسعى فيه لعله ينظر في بعضها انها شعرت بهذا الموجود وجعلت تسعى نحوه فيتعلم منها ما يكون سبب نجاته فرآها كلها انما تسعى في تحصيل غذائها ومقتضى شهواتها من المطعوم والمشروب والمنكوح والاستظلال والاستدفا وتجد في ذلك ليلها ونهارها الى حين مماتها وانقضاء مدتها ولم يرشيا منها يحرف عن هذا الراى ولا يسعى لغيره في وقت من الاوقات فبان له بذلك انها لم تشعر بذلك الموجود ولا اشتاقت اليه ولا تعرفت به بوجه من الوجوه وانها كلها صائرة الى العدم او الى حال شبيه بالعدم فلما حكم ذلك على الحيوان علم ان الحكم له على النبات اولى اذ ليس للنبات من الادراكات الا بعض ما للحيوان واذا كان الاكمل ادراكا لم يصل الى هذه المعرفة فالانقص ادراكا احرى أن لا يصل مع انه رأى ايضا ان افعال النبات كلها لا تتعدى الغذاء والتوليد * ثم انه بعد ذلك نظر الى الكواكب والافلاك فراها كلها منتظمة الحركات جارية على نسق ورآها شفافة مضيئة بعيدة عن قبول التغير والفساد فحدس حدسا قويا ان لها ذوات سوى اجسامها تعرف ذلك الموجود الواجب الوجود وان تلك الذوات العارفة ليست باجسام ولا منطبعة في اجسام مثل ذاته هو العارفة وكيف لا يكون لها مثل تلك الذوات البريئة عن الجسمانية ويكون لمثله هو على ما هو به من الضعف وشدة الاحتياج الى الامور المحسوسة وانه من جملة الاجسام الفاسدة ومع ما به من النقص فلم يعقه ذلك عن ان تكون ذاته بريئة عن الاجسام لا تفسد فتبين له بذلك ان الاجسام السماوية اولى بذلك وعلم انها تعرف ذلك الموجود الواجب الوجود وتشاهده على الدوام بالفعل لان العوائق التي قطعت به هو عن دوام المشاهدة من العوارض المحسوسة لا يوجد مثلها للاجسام السماوية * ثم انه تفكر لم اختص من بين سائر انواع الحيوان بهذه الذات التي اشبه بها الاجسام السماوية وقد كان تبين له اولا من أمر العناصر واستحالة بعضها الى بعض ان جميع ما على وجه الارض لا يبقى على صورته بل الكون والفساد متعاقبان عليه أبدا وان أكثر هذه الاجسام مختلطة مركبة من اشياء متضادة ولذلك تؤل الى الفساد وانه لا يوجد منها شئ صرفا وما كان منها قريبا من ان يكون صرفا خالصا لا شائبة فيه فهو بعيد عن الفساد جدا مثل جسد الذهب والياقوت وان الاجسام السماوية بسيطة صرفة ولذلك هي بعيدة عن الفساد والصور لا تتعاقب عليها وتبين له ايضا ان جميع الاجسام التي في عالم الكون والفساد منها ما تتقوم حقيقته بصورة واحدة زائدة على معنى الجسمية وهذه هي الاسطقصات الاربع ومنها ما تتقوم حقيقته باكثر من ذلك كالحيوان والنبات فما كان قوام حقيقته بصور أقل كانت افعاله اقل وبعده من الحياة أكثر فان عدم الصورة جملة لم يكن فيه الى الحياة طريق وصار في حال شبيهة بالعدم وما كان قوام حقيقته بصور أكثر كانت افعاله أكثر ودخوله في حال الحياة أبلغ وان كانت تلك الصورة بحيث لا سبيل الى مفارقتها المادتها التي اختصت بها كانت الحياة حينئذ في غاية الظهور والدوام والقوة فالشئ العديم الصورة جملة هي الهيولى والمادة ولا شئ من الحياة فيها وهي شبيهة بالعدم والشئ المتقوم بصورة واحدة هي الاسطقصات الاربع وهي في انزل مراتب الوجود في عالم الكون والفساد ومنها تتركب الاشياء ذوات الصور الكثيرة

وهذه الاسطقصات ضعيفة الحياة جدا اذ ليست تتحرك الا حركة واحدة وانما كانت ضعيفة الحياة لان لكل واحد منها ضدا ظاهر العناد يخالفه في مقتضى طبيعته و يطلب ان يغير صورته فوجوده لذلك غير متمكن وحياته ضعيفة والنبات أقوى حياة منه والحيوان اظهر حياة منه وذلك أن ما كان من هذه المركبات تغلب عليه طبيعة اسطقص واحد فلقوته فيه يغلب طبائع الاسطقصات الباقية ويبطل قواها ويصير ذلك المركب في حكم الاسطقص الغالب فلا يستاهل لاجل ذلك من الحياة الا شيأ يسيرا كما ان ذلك الاسطقص لا يستاهل من الحياة الا يسيرا ضعيفا وما كان من هذه المركبات لا تغلب عليه طبيعة اسطقص واحد منها فان الاسطقصات تكون فيه متعادلة متكافئة فاذن لا يبطل احدها قوة الآخر با كثر مما يبطل ذلك الآخر قوته بل يفعل بعضها في بعض فعلا متساويا فلا يكون فعل احد الاسطقصات اظهر ولا يستولي عليه احدها فيكون بعيد الشبه من كل واحد من الاسطقصات فكانه لا مضادة لصورته فيستاهل للحياة بذلك ومتى زاد هذا الاعتدال وكان أتم وابعد من الانحراف كان بعده عن ان يوجد له ضد أكثر وكانت حياته أكمل

ولما كان الروح الحيواني الذي مسكنه القلب شديد الاعتدال لانه ألطف من الارض والماء واغلظ من النار والهواء صار في حكم الوسط ولم يضاد شيأ من الاسطقصات مضادة بينة فاستعد بذلك لصورة الحيوانية ورأى ان الواجب على ذلك ان يكون أعدل ما في هذه الارواح الحيوانية مستعدا لان يكون من الحياة في عالم الكون والفساد وأن يكون ذلك الروح قريبا من أن يقال انه لاضد لصورته فيشبه لذلك هذه الاجسام السماوية التي لا ضد لصورها ويكون روح ذلك الحيوان لانه وسط بالحقيقة بين الاسطقصات التي لا تتحرك الى جهة العلو على الاطلاق ولا الى جهة السفل بل لو أمكن ان يجعل في وسط المسافة التي بين المركز وأعلى ما ينتهي اليه النار في جهة العلو ولم يطرأ عليه فساد لثبت هنالك ولم يطلب الصعود ولا النزول ولو تحرك في المكان لتحرك حول الوسط كما تتحرك الاجسام السماوية ولو تحرك في الموضع لتحرك على نفسه وكان كرى الشكل اذ لا يمكن غير ذلك فاذن هو شديد الشبه بالاجسام السماوية * ولما كان قد اعتبر أحوال الحيوان ولم ير فيها ما يظن به أنه شعر بالموجود الواجب الوجود وقد كان علم من ذاته أنها قد شعرت به قطع بذلك على انه هو الحيوان المعتدل الروح الشبيه بالاجسام السماوية كلها وتبين له انه نوع مباين لسائر أنواع الحيوان وانه انما خلق لغاية اخرى وأعد لامر عظيم لم يعد له شئ من أنواع الحيوان وكفى به شرفا ان يكون أخس جزأيه وهو الجسماني أشبه الاشياء بالجواهر السماوية الخارجة عن عالم الكون والفساد المنزهة عن حوادث النقص والاستحالة والتغيير واما أشرف جزأيه فهو الشئ الذي به عرف الموجود الواجب الوجود وهذا الشئ العارف أمر رباني الهي لا يستحيل ولا يلحقه الفساد ولا يوصف بشئ مما توصف به الاجسام ولا يدرك بشئ من الحواس ولا يتخيل ولا يتوصل الى معرفته بالة سواه بل يوصل اليه به فهو العارف والمعروف والمعرفة وهو العالم والعلم والمعلوم لا يتباين في شئ من ذلك اذ التباين والانفصال من صفات الاجسام ولواحقها ولا جسم هنالك ولا صفة جسم ولا لاحق بجسم * فلما تبين له الوجه الذي اختص به من بين سائر أصناف الحيوان بمشابهة الاجسام السماوية رأى ان الواجب عليه ان يتقبلها

يتقبلها ويحاكى أفعالها ويتشبه بها جهده * وكذلك رأى انه بجزئه الاشرف الذي به عرف الموجود الواجب الوجود فيه شبه ما منه من حيث هو منزه عن صفات الاجسام كما ان الواجب الوجود منزه عنها ورأى أيضا انه يجب عليه ان يسعى في تحصيل صفاته لنفسه من أي وجه أمكن وان يتخلق بأخلاقه ويقتدي بأفعاله ويجد في تنفيذ ارادته ويسلم الامر له ويرضى بجميع حكمه رضى من قلبه ظاهرا وباطنا بحيث يسر به وان كان مؤلما لجسمه وضارا به ومتلفا لبدنه بالجملة * وكذلك رأى ان فيه شبها من سائر انواع الحيوان بجزئه الخسيس الذي هو من عالم الكون والفساد وهو البدن المظلم الكثيف الذي يطالبه بأنواع المحسوسات من المطعوم والمشروب والمنكوح ورأى ان ذلك البدن لم يخلق له عبثا ولا قرن به لامر باطل وانه يجب عليه أن يتفقده ويصلح من شأنه وهذا التفقد لا يكون منه الا بفعل يشبه أفعال سائر الحيوان فتوجهت عنده الاعمال التي يجب عليه أن يفعلها نحو ثلاثة اغراض * اما عمل يتشبه به بالحيوان غير الناطق * واما عمل يتشبه به بالاجسام السماوية * واما عمل يتشبه به بالموجود الواجب الوجود * فالتشبه الاول يجب عليه من حيث له البدن المظلم ذو الاعضاء المنقسمة والقوى المختلفة والمنازع المتفننة * والتشبه الثاني يجب عليه من حيث له الروح الحيواني الذي مسكنه القلب وهو مبدأ لسائر البدن ولما فيه من القوى * والتشبه الثالث يجب عليه من حيث هو هو اي من حيث هو الذات الذي عرف به ذلك الموجود الواجب الوجود وكان أولا قد وقف على ان سعادته وفوزه من الشقاء انما هي في دوام المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود حتى يكون بحيث لا يعرض عنه طرفة عين ثم انه نظر في الوجه الذي يتأتى له به هذا الدوام فخرج له النظر أنه يجب عليه الاعتمال في هذه الاقسام الثلاثة من التشبهات اما التشبه الاول فلا يحصل له به شئ من هذه المشاهدة بل هو صارف عنها وعائق دونها اذ هو تصرف في الامور المحسوسة والامور المحسوسة كلها حجب معترضة دون تلك المشاهدة وانما احتيج الى هذا التشبه لاستدامة هذا الروح الحيواني الذي يحصل به التشبه الثاني بالاجسام السماوية فالضرورة تدعو اليه من هذا الطريق ولو كان لا يخلو من تلك المضرة (وأما التشبه الثاني) فيحصل له به حظ عظيم من المشاهدة على الدوام لكنها مشاهدة يخالطها شوب اذ من يشاهد ذلك النحو من المشاهدة على الدوام فهو مع تلك المشاهدة يعقل ذاته ويلتفت اليها حسبما يتبين بعد هذا (واما التشبه الثالث) فيحصل به المشاهدة الصرفة والاستغراق المحض الذي لا التفات فيه بوجه من الوجوه الا الى الموجود الواجب الوجود والذي يشاهد هذه المشاهدة قد غابت عنه ذات نفسه وفنيت وتلاشت وكذلك سائر الذوات كثيرة كانت او قليلة الا الذات الواحد الحق الواجب الوجود جل وتعالى وعز فلما تبين له ان مطلوبه الاقصى هو هذا التشبه الثالث وانه لا يحصل له الا بعد التمرن والاعتمال مدة طويلة في التشبه الثاني وان هذه المدة لا تدوم له الا بالتشبه الاول وعلم ان التشبه الاول وان كان عائقا بذاته فانه معين بالعرض لا بالذات لكنه ضروري ألزم نفسه ان لا يجعل لها حظا من هذا التشبه الاول الا بقدر الضرورة وهي الكفاية التي لا بقاء للروح الحيواني بأقل منها ووجد ما تدعو اليه الضرورة في بقاء هذا الروح أمرين احدهما ما يمده به من داخل ويخلف عليه بدل ما تحلل من الغذاء والآخر ما يقيه من خارج

ويدفع عنه وجوه الاذى من البرد والحر والمطر ولفح الشمس والحيوانات المؤذية ونحو ذلك ورأى انه ان تناول ضرورية من هذه جزافا كيفما اتفق ربما وقع فى السرف واخذ فوق الكفاية فكان سعيه على نفسه من حيث لا يشعر فرأى ان الحزم له ان يفرض لنفسه فيها حدودا لا يتعداها ومقادير لا يتجاوزها وبان له ان هذا الفرض يجب ان يكون فى جنس ما يتغذى به وأى شئ يكون وفى مقداره وفى المدة التى تكون بين العودتين اليه فنظر أولا فى اجناس ما به يتغذى فرآها ثلاثة اضرب اما نبات لم يكمل نضجه ولم ينته الى غاية تمامه وهى اصناف البقول الرطبة التى يمكن الاغتذاء بها واما ثمرات النبات الذى قد تم وتناهى واخرج بزره ليتكون منه آخر من نوعه حفظا له وهى اصناف الفواكه رطبها ويابسها واما حيوان من الحيوانات التى يغتذى بها اما البرية واما البحرية وكان قد صح عنده ان هذه الاجناس كلها من فعل ذلك الموجود الواجب الوجود الذى تبين له ان سعادته فى القرب منه وطلب التشبه به ولا محالة ان الاغتذاء بها مما يقطعها عن كمالها ويحول بينها وبين الغاية المقصودة بها فكان ذلك اعتراضا على فعل الفاعل وهذا الاعتراض مضاد لما يطلبه من القرب منه والتشبه به فرأى ان الصواب له لو امكن ان يمتنع عن الغذاء جملة واحدة لكنه لم يمكنه ذلك لانه ان امتنع عنه يؤل ذلك الى فساد جسمه فيكون ذلك اعتراضا على فاعله اشد من الاعتراض الاول اذ هو اشرف من تلك الاشياء الاخر التى يكون فسادها سببا لبقائه فاستسهل ايسر الضررين وتسامح فى اخف الاعتراضين ورأى ان يأخذ من هذه الاجناس اذا عدمت ايها تيسر له بالقدر الذى يتبين له بعد هذا اما ان كانت كلها موجودة فينبغى له حينئذ ان يتثبت ويتخير منها ما لم يكن فى أخذه كبير اعتراض على فعل الفاعل وذلك مثل لحوم الفواكه التى قد تناهت فى الطيب وصلح ما فيها من البذر لتوليد المثل على شرط التحفظ بذلك البزر بأن لا يأكله ولا يفسده ولا يلقيه فى موضع لا يصلح للنبات مثل الصفاة والسبخة ونحوها فان تعذر عليه وجود مثل هذه الثمرات ذات اللحم الغاذى كالتفاح والكمثرى والاجاص ونحوها كان له عند ذلك أن يأخذ اما من الثمرات التى لا يغذو منها الا نفس البزر كالجوز والقسطل واما من البقول التى لم تصل حد كمالها والشرط عليه فى هذين أن يقصد أكثرها وجودا وأقواها توليدا وأن لا يستأصل أصولها ولا يفنى بزرها فان عدم هذه فله ان يأخذ من الحيوان أو من بيضه والشرط عليه فى الحيوان أن يأخذ من أكثره وجودا ولا يستأصل منه نوعا بأسره * هذا ما رآه فى جنس ما يغتذى به وأما المقدار فرأى أن يكون بحسب ما يسد خلة الجوع ولا يزيد عليها * وأما الزمان الذى بين كل عودتين فرأى انه اذا أخذ حاجته من الغذاء أن يقيم عليه ولا يتعرض لسواه حتى يلحقه ضعف يقطع به عن بعض الاعمال التى تجب عليه فى التشبه الثانى وهو الذى يأتى ذكره بعد هذا * وأما ما تدعو اليه الضرورة فى بقاء الروح الحيوانى مما يقيه من خارج فكان الخطب فيه عليه يسيرا اذ كان مكتسيا بالجلود وقد كان له مسكن يقيه مما يرد عليه من خارج فاكتفى بذلك ولم يرى الاشتغال به والتزم فى غذائه القوانين التى رسمها لنفسه (وهى التى تقدم شرحها) * ثم اخذ فى العمل الثانى وهو التشبه بالاجسام السماوية والاقتداء بها والتقبل لصفاتها وتتبع اوصافها فانحصرت عنده فى ثلاثة اضرب (الضرب الاول) أوصاف لها بالاضافة الى ما تحتها

من عالم الكون والفساد وهي ما تعطيها اياه من التسخين بالذات والتبريد بالعرض والاضاءة والتلطيف والتكثيف الى سائر ما تفعل فيه من الامور التي بها يستعد لفيضان الصور الروحانية عليه من الفاعل الواجب الوجود (والضرب الثاني) أوصاف لها في ذاتها مثل كونها شفافة ونيرة وطاهرة منزهة عن الكدر وضروب الرجس ومتحركة بالاستدارة بعضها على مركز نفسها وبعضها على مركز غيرها (والضرب الثالث) أوصاف لها بالاضافة الى الموجود الواجب الوجود مثل كونها تشاهده مشاهدة دائمة ولا تعرض عنه وتتشوق اليه وتتصرف بحكمه وتتسخر في تتميم ارادته ولا تتحرك الا بمشيئته وفي قبضته * فجعل يتشبه بها جهده في كل واحد من هذه الاضرب الثلاثة (أما الضرب الاول) فكان تشبهه بها فيه ان ألزم نفسه أن لا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مضرة أو ذا عائق من الحيوان أو النبات وهو يقدر على ازالتها عنه الا ويزيلها فتى وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب أو تعلق به نبات آخر يؤذيه أو عطش عطشا يكاد يفسده أزال عنه ذلك الحاجب ان كان مما يزال وفصل بينه وبين ذلك المؤذي بفاصل لا يضر المؤذي وتعهده بالسقي ما أمكنه * ومتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه سبع أو نشب به ناشب أو تعلق به شوك أو سقط في عينيه أو اذنيه شئ يؤذيه او مسه ظمأ أو جوع تكفل بازالة ذلك كله عنه جهده واطعمه وسقاه * ومتى وقع بصره على ماء يسيل الى سقي نبات او حيوان وقد عاقه عن ممره عائق من حجر سقط فيه او جرف انهار عليه أزال ذلك كله عنه وما زال يمعن في هذا النوع من ضروب التشبه حتى بلغ فيه الغاية (واما الضرب الثاني) فكان تشبهه بها فيه ان ألزم نفسه دوام الطهارة وازالة الدنس والرجس عن جسمه والاغتسال بالماء في أكثر الاوقات وتنظيف ما كان من أظفاره واسنانه ومغابن بدنه وتطييبها بما أمكنه من طيب النبات وصنوف الدواخن العطرة وتعهد لباسه بالتنظيف والتطييب حتى كان كله يتلألأ حسنا وجمالا ونظافة وطيبا * والتزم مع ذلك ضروب الحركة على الاستدارة فتارة كان يطوف بالجزيرة ويدور على ساحلها ويسيح باكنافها وتارة كان يطوف ببيته او ببعض الكدى أدوارا معدودة اما مشيا واما هرولة وتارة يدور على نفسه حتى يغشى عليه (وأما الضرب الثالث) فكان تشبهه بها فيه أن كان يلازم الفكرة في ذلك الموجود الواجب الوجود ثم يقطع علائق المحسوسات ويغمض عينيه ويسد اذنيه ويضرب جهده عن تتبع الخيال ويروم بمبلغ طاقته ان لا يفكر في شئ سواه ولا يشرك به أحدا ويستعين على ذلك الاستدارة على نفسه والاستحثاث فيها فكان اذا اشتد في الاستدارة غابت عنه جميع المحسوسات وضعف الخيال وسائر القوى التي تحتاج الى الآلات الجسمانية وقوي فعل ذاته التي هي بريئة من الجسم فكانت في بعض الاوقات فكرته قد تخلص عن الشوب ويشاهد بها الموجود الواجب الوجود ثم تكر عليه القوى الجسمانية فتفسد عليه حاله وترده الى أسفل السافلين فيعود من ذي قبل فان لحقه ضعف يقطع به عن غرضه تناول بعض الاغذية على الشرائط المذكورة ثم انتقل الى شأنه من التشبه بالاجسام السماوية بالاضرب الثلاثة المذكورة ودأب على ذلك مدة وهو يجاهد قواه الجسمانية وتجاهده وينازعها وتنازعه وفي الاوقات التي يكون له عليها الظهور وتتخلص فكرته عن الشوب يلوح له شئ من أحوال اهل التشبه الثالث يدعوه لان يطلب التشبه الثالث ويسعى في تحصيله

فينظر فى صفات الموجود الواجب الوجود وقد كان تبين له اثناء نظره العلمى قبل الشروع فى العمل انها على ضربين (اما صفة ثبوت) كالعلم والقدرة والحكمة (واما صفة سلب) كتنزهه عن الجسميات ولواحقها وما يتعلق بها ولو على بعد وأن صفات الثبوت يشترط فيها هذا التنزيه حتى لا يكون فيها شئ من صفات الاجسام التى من جملتها الكثرة فلا تتكثر ذاته بهذه الصفات الثبوتية بل ترجع كلها الى معنى واحد هو حقيقة ذاته * فجعل يطلب كيف يتشبه به فى كل واحد من هذين الضربين (اما صفات الايجاب) فلما علم انها كلها راجعة الى حقيقة ذاته وانه لا كثرة فيها بوجه من الوجوه اذ الكثرة من صفات الاجسام وعلم ان علمه بذاته ليس معنى زائدا على ذاته بل ذاته هى علمه بذاته وعلمه بذاته هو ذاته تبين له انه ان امكنه هو ان يعلم ذاته فليس ذلك العلم الذى علم به ذاته معنى زائدا على ذاته بل هو هو فرأى ان التشبه به فى صفة الايجاب هو ان يعلمه فقط دون ان يشرك به شيأ من صفات الاجسام فاخذ نفسه بذلك (واما صفات السلب) فانها كلها راجعة الى التنزه عن الجسمية فجعل يطرح اوصاف الجسمية عن ذاته وكان قد اطرح منها كثيرا فى رياضته المتقدمة التى كان ينحو بها التشبه بالاجسام السماوية الا أنه بقى منها بقايا كحركة الاستدارة والحركة من اخص صفات الاجسام وكالاعتناء بامر الحيوان والنبات والرحمة لهما والاهتمام بازالة عوائقهما فان هذه ايضا من صفات الاجسام اذ لا يراها اولا الا بقوة هى جسمانية ثم يكدح فى امرها بقوة جسمانية أيضا فاخذ فى طرح ذلك كله عن نفسه اذ هى بجملتها مما لا يليق بهذه الحالة التى يطلبها الآن وما زال يقتصر على السكون فى قعر مغارته مطرقا غاضا بصره معرضا عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية مجتمع الهم والفكر فى الموجود الواجب الوجود وحده دون شركة فمتى سنح لخياله سانح سواه طرده عن خياله جهده ودافعه وراض نفسه على ذلك ودأب فيه مدة طويلة بحيث تمر عليه عدة ايام لا يتغذى فيها ولا يتحرك * وفى خلال شدة مجاهدته هذه ربما كانت تغيب عن ذكره وفكره جميع الذوات الا ذاته فانها كانت لا تغيب عنه فى وقت استغراقه بمشاهدة الموجود الاول الحق الواجب الوجود فكان يسوءه ذلك ويعلم انه شوب فى المشاهدة المحضة وشركة فى الملاحظة وما زال يطلب الفناء عن نفسه والاخلاص فى مشاهدة الحق حتى تأتى له ذلك وغابت عن ذكره وفكره السموات والارض وما بينهما وجميع الصور الروحانية والقوى الجسمانية وجميع القوى المفارقة للمواد (وهى الذوات العارفة بالموجود) وغابت ذاته فى جملة الذوات وتلاشى الكل واضمحل وصار هباء منثورا ولم يبق الا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود وهو يقول بقوله الذى ليس معنى زائدا على ذاته لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ففهم كلامه وسمع نداءه ولم يمنعه عن فهمه كونه لا يعرف الكلام ولا يتكلم واستغرق فى حالته هذه وشاهد ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فلا تعلق قلبك بوصف امر لم يخطر على قلب بشر فان كثيرا من الامور التى قد تخطر على قلوب البشر يتعذر وصفها فكيف بامر لا سبيل الى خطوره على القلب ولا هو من عالمه ولا من طوره

ولست اعنى بالقلب جسم القلب ولا الروح التى فى تجويفه بل أعنى به صورة تلك الروح الفائضة بقواها على بدن الانسان فان كل واحد من هذه الثلاثة يقال له قلب ولكن لا سبيل

لخطور

لخطور ذلك الامر على وحد من هذه الثلاثة ولا يتأتى التعبير الا عما خطر عليها ومن رام التعبير عن تلك الحال فقد رام مستحيلا وهو بمنزلة من يريد ان يذوق الالوان المصبوغة من حيث هي ألوان ويطلب ان يكون السواد مثلا حلوا او حامضا * لكن مع ذلك لا نخليك عن اشارات نومي بها الى ما شاهدناه من عجائب ذلك المقام على سبيل ضرب المثال لا على سبيل قرع باب الحقيقة اذ لا سبيل الى التحقق بما في ذلك المقام الا بالوصول اليه * فاصغ الآن بسمع قلبك وأحدق ببصر عقلك الى ما اشير اليه لعلك تجد منه هديا يلقيك على جادة الطريق وشرطي عليك ان لا تطلب مني في هذا الوقت مزيد بيان بالمشافهة على ما اودعته هذه الاوراق فان المجال ضيق والتحكم بالالفاظ على امر ليس من شانه ان يلفظ به خطر

(فاقول)

انه لما فني عن ذاته وعن جميع الذوات ولم ير في الوجود الا الواحد الحي القيوم وشاهد ما شاهد ثم عاد الى ملاحظة الاغيار عندما افاق من حاله تلك التي هي شبيهة بالسكر خطر بباله انه لا ذات له يغاير بها ذات الحق تعالى وان حقيقة ذاته هي ذات الحق وان الشيء الذي كان يظن اولا انه ذاته المغايرة لذات الحق ليس شيئا في الحقيقة بل ليس ثم شيء الا ذات الحق وان ذلك بمنزلة نور الشمس الذي يقع على الاجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها فانه وان نسب الى الجسم الذي ظهر فيه فليس هو في الحقيقة شيئا سوى نور الشمس وان زال ذلك الجسم زال نوره وبقي نور الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مغيبه ومتى حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور قبله فاذا عدم الجسم عدم ذلك القبول ولم يكن له معنى * وتقوى عنده هذا الظن بما كان بان له من ان ذات الحق عز وجل لا تتكثر بوجه من الوجوه وان علمه بذاته هو ذاته بعينها فلزم عنده من هذا ان من حصل عنده العلم بذاته فقد حصل عنده ذاته وقد كان حصل عنده العلم فحصل عنده الذات وهذه الذات لا تحصل الا عند ذاتها ونفس حصولها هو الذات فاذن هو الذات بعينها وكذلك جميع الذوات المفارقة للمادة العارفة بتلك الذات الحقة التي كان يراها اولا كثيرة وصارت عنده بهذا الظن شيئا واحدا وكادت هذه الشبهة ترسخ في نفسه لولا ان تداركه الله برحمته وتلافاه بهدايته فعلم ان هذه الشبهة انما ثارت عنده من بقايا ظلمة الاجسام وكدورة المحسوسات فان الكثير والقليل والواحد والوحدة والجمع والاجتماع والافتراق هي كلها من صفات الاجسام وتلك الذوات المفارقة العارفة بذات الحق عز وجل لبراءتها عن المادة لا يجب ان يقال انها كثيرة ولا واحدة لان الكثرة انما هي مغايرة الذوات بعضها لبعض والوحدة ايضا لا تكون الا بالاتصال ولا يفهم شيء من ذلك الا في المعاني المركبة المتلبسة بالمادة غير ان العبارة في هذا الموضع قد تضيق جدا لانك ان عبرت عن تلك الذوات المفارقة بصيغة الجمع حسب لفظنا هذا اوهم ذلك معنى الكثرة فيها وهي بريئة عن الكثرة وان انت عبرت بصيغة الافراد اوهم ذلك معنى الاتحاد وهو مستحيل عليها وكاني بمن يقف على هذا الموضع من الخفافيش الذين تظلم الشمس في أعينهم يتحرك في سلسلة جنونه ويقول لقد افرطت في تدقيقك حتى انك قد انخلعت عن غريزة العقلاء واطرحت حكم المعقول فان من احكام العقل ان الشيء اما واحد واما كثير فليتئد في غلوائه وليكف من غرب لسانه وليتهم نفسه وليعتبر بالعالم المحسوس الخسيس الذي

هو بين طباقه بضوء اعتبر به حي بن يقظان حيث كان ينظر فيه بنظر فيراه كثيرا كثرة
لا تنحصر ولا تدخل تحت حد ثم ينظر بنظر آخر فيراه واحدا وبقي في ذلك مترددا ولم يمكنه
وان يقطع عليه بأحد الوصفين دون الآخر وهذا العالم المحسوس منشأ الجمع والافراد
وفيه تفهم حقيقته وفيه الانفصال والاتصال والتحيز والمغايرة والاتفاق والاختلاف فما
ظنك بالعالم الالهي الذي لا يقال فيه كل ولا بعض ولا ينطق في امره بلفظ من الالفاظ المسموعة
الا وتوهم فيه شيء على خلاف الحقيقة فلا يعرفه الا من شاهده ولا تثبت حقيقته الا عند
من حصل فيه واما قوله حتى انخلعت عن غريزة العقلاء واطرحت حكم المعقول فنحن
نسلم له ذلك ونتركه مع عقله وعقلائه فان العقل الذي يعنيه هو وامثاله انما هو القوة الناطقة
التي تتصفح اشخاص الموجودات المحسوسة وتقتنص منها المعنى الكلي والعقلاء الذين
يعنيهم هم الذين ينظرون بهذا النظر والنمط الذي كلامنا فيه فوق هذا كله فليسد عنه سمعه
من لا يعرف سوى المحسوسات وكلياتها وليرجع الى فريقه الذين يعلمون ظاهرا من الحياة
الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) * فان كنت ممن يقنع بهذا النوع من التلويح والاشارة
الى ما في العالم الالهي ولا تحمل الفاظنا من المعاني على ما جرت العادة بها في تحميلها اياه فنحن
نزيدك شيأ مما شاهده حي بن يقظان في مقام اولي الصدق الذي تقدم ذكره (فنقول) انه بعد
الاستغراق المحض والفناء التام وحقيقة الوصول *شاهد للفلك الاعلى الذي لا جسم له
ورأى ذاتا بريئة عن المادة ليست هي ذات الواحد الحق ولا هي نفس الفلك ولا هي غيرها
وكأنها صورة الشمس التي تظهر في مرآة من المرائي الصقيلة فانها ليست هي الشمس ولا المرآة
ولا هي غيرهما ورأى لذات ذلك الفلك مفارقة من الكمال والبهاء والحسن ما يعظم عن ان
يوصف بلسان ويدق عن ان يكسى بحرف أو صوت ورآه في غاية من اللذة والسرور والغبطة
والفرح بمشاهدة ذات الحق جل جلاله *وشاهد أيضا للفلك الذي يليه وهو فلك الكواكب
الثابتة ذاتا بريئة عن المادة أيضا ليست هي ذات الواحد الحق ولا ذات الفلك الاعلى المفارقة
ولا نفسه ولا هي غيرها وكأنها صورة الشمس التي تظهر في مرآة قد انعكست اليها الصورة من
مرآة أخرى مقابلة للشمس ورأى لهذه الذات ايضا من البهاء والحسن واللذة مثل ما رأى لتلك
التي للفلك الاعلى *وشاهد ايضا للفلك الذي يلي هذا وهو فلك زحل ذاتا مفارقة للمادة ليست
هي شيأ من الذوات التي شاهدها قبلها ولا هي غيرها وكأنها صورة الشمس التي تظهر في
مرآة قد انعكست اليها الصورة من مرآة مقابلة للشمس المرآة ورأى لهذه الذات أيضا مثل
ما رأى لما قبلها من البهاء واللذة وما زال يشاهد لكل فلك ذاتا مفارقة بريئة عن المادة ليست
هي شيأ من الذوات التي قبلها ولا هي غيرها وكأنها صورة الشمس التي تنعكس من مرآة
على مرآة على رتب مرتبة بحسب ترتيب الافلاك وشاهد لكل ذات من هذه الذوات من
الحسن والبهاء واللذة والفرح ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر الى أن انتهى
الى عالم الكون والفساد وهو جميع حشو فلك القمر فرأى له ذاتا بريئة عن المادة ليست شيأ
من الذوات التي شاهدها قبلها ولا هي سواها ولهذه الذات سبعون ألف وجه في كل وجه سبعون
الف فم في كل فم سبعون ألف لسان يسبح بها ذات الواحد الحق ويقدسها ويمجدها لا يفتر
ورأى لهذه الذات التي توهم فيها الكثرة وليست كثيرة من الكمال واللذة مثل الذي رآه لما

قبلها

قبلها وكأن هذه الذات صورة الشمس التي تظهر في ماء مترجرج قد انعكست اليها الصورة من آخر المرايا التي انتهى اليها الانعكاس على الترتيب المتقدم من المرآة الاولى التي قابلت الشمس عينها ثم شاهد لنفسه ذاتا مفارقة لو جاز ان تتبعض ذات السبعين ألف وجه لقلنا انها بعضها ولولا ان هذه الذات حدثت بعد ان لم تكن لقلنا انها هي ولولا اختصاصها ببدنه عند حدوثه لقلنا انها لم تحدث * وشاهد في هذه الرتبة ذوات مثل ذاته لاجسام كانت ثم اضمحلت ولاجسام لم تزل معه في الوجود وهي من الكثرة في حد بحيث لا تتناهى ان جاز أن يقال لها كثيرة أو هي كلها متحدة ان جاز ان يقال لها واحدة ورأى لذاته ولتلك الذوات التي في رتبته من الحسن والبهاء واللذة غير المتناهية ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا يصفه الواصفون ولا يعقله الا الواصلون العارفون * وشاهد ذوات كثيرة مفارقة للمادة كأنها مرايا صدئة قد ران عليها الخبث وهي مع ذلك مستدبرة للمرايا الصقيلة التي ارتسمت فيها صورة الشمس ومولية عنها بوجوهها ورأى لهذه الذوات من القبح والنقص ما لم يقم قط بباله ورآها في آلام لا تنقضي وحسرات لا تمحى قد أحاط بها سرادق العذاب وأحرقتها نار الحجاب ونشرت بمناشير بين الانزعاج والانجذاب * وشاهد هنا ذوات سوى هذه المعذبة تلوح ثم تضمحل وتنعقد ثم تنحل فتثبت فيها وانعم النظر اليها فرأى هولا عظيما وخطبا جسيما وخلقا حثيثا واحكاما بليغا وتسوية ونفخا وانشاء ونسخا فما هو الا ان تثبت قليلا فعادت اليه حواسه وتنبه من حاله تلك التي كانت شبيهة بالغشي وزلت قدمه عن ذلك المقام ولاح له العالم المحسوس وغاب عنه العالم الالهي اذ لم يمكن اجتماعهما في حال واحدة اذ الدنيا والآخرة كضرتين ان ارضيت احداهما اسخطت الاخرى (فان قلت) يظهر مما حكيته من هذه المشاهدة ان الذوات المفارقة ان كانت لجسم دائم الوجود لا يفسد كالافلاك كانت هي دائمة الوجود وان كانت لجسم يؤول الى الفساد كالحيوان الناطق فسدت هي واضمحلت وتلاشت حسبما مثلت به في مرايا الانعكاس فان الصورة لا ثبات لها الا بثبات المرآة فاذا فسدت المرآة صح فساد الصورة واضمحلت هي (اقول لك) ما اسرع ما نسيت العهد وحلت عن الربط الم تقدم اليك ان مجال العبارة هنا ضيق وان الالفاظ على كل حال توهم غير الحقيقة وذلك الذي توهمته انما اوقعك فيه ان جعلت المثال والممثل به على حكم واحد من جميع الوجوه ولا ينبغي ان يفعل ذلك في اصناف المخاطبات المعتادة فكيف ههنا والشمس ونورها وصورتها وتشكلها والمرايا والصور الحاصلة فيها كلها امور غير مفارقة للاجسام ولا قوام لها الا بها وفيها فلذلك افتقرت في وجودها اليها وبطلت ببطلانها * واما الذوات الالهية والارواح الربانية فانها كلها بريئة عن الاجسام ولواحقها ومنزهة غاية التنزيه عنها ولا ارتباط ولا تعلق لها بها وسواء بالاضافة اليها بطلان الاجسام أو ثبوتها ووجودها وعدمها وانما ارتباطها وتعلقها بذات الواحد الحق الموجود الواجب الوجود الذي هو اولها ومبدؤها وسببها وموجدها وهو يعطيها الدوام ويمدها بالبقاء والتسرمد ولا حاجة بها الى الاجسام بل الاجسام محتاجة اليها ولو جاز عدمها لانعدمت الاجسام فانها هي مبادئها كما انه لو جاز ان تعدم ذات الواحد الحق تعالى وتقدس عن ذلك لا اله الا هو لانعدمت هذه الذوات كلها ولانعدمت الاجسام ولانعدم العالم الحسي بأسره ولم يبق موجود اذ الكل مرتبط بعضه ببعض والعالم المحسوس وان كان تابعا

للعالم الالهي شبيه الظل له والعالم الالهي مستغن عنه وبرىء منه فانه مع ذلك قد يستحيل فرض
عدمه اذ هو تابع للعالم الالهي وفساده ان يبدل لا أن يعدم بالجملة وبذلك نطق الكتاب
العزيز حيثما وقع هذا المعنى في تصيير الجبال كالعهن والناس كالفراش وتكوير الشمس
والقمر وتفجير البحار يوم تبدل الارض غير الارض والسموات فهذا القدر الذي امكنني
الآن أن اشير اليك به فيما شاهده حي بن يقظان في ذلك المقام الكريم فلا تلتمس الزيادة
عليه من جهة الالفاظ فان ذلك كالمتعذر

وأما تمام خبره فسأتلوه عليك ان شاء الله تعالى وهو انه لما عاد الى العالم المحسوس وذلك بعد
جولانه حيث جال سئم تكاليف الحياة واشتد شوقه الى الحياة القصوى فجعل يطلب العود
الى ذلك المقام بالنحو الذي طلبه اولا حتى وصل اليه بايسر من السعي الذي وصل به اولا ودام
فيه ثانيا مدة اطول من الاولى ثم عاد الى عالم الحس ثم تكلف الوصول الى مقامه بعد ذلك
فكان أيسر عليه من الاولى والثانية وكان دوامه فيه أطول وما زال الوصول الى ذلك المقام
الكريم يزيد عليه سهولة والدوام فيه يزيد طولا مدة بعد مدة حتى صار بحيث يصل اليه
متى شاء ولا ينفصل عنه الا متى شاء فكان يلازم مقامه ذلك ولا ينثني عنه الا لضرورة بدنه
التي كان قد قللها حتى كان لا يوجد اقل منها وهو في ذلك كله يتمنى ان يريحه الله عز وجل من
كل بدنه الذي يدعوه الى مفارقة مقامه ذلك فيتخلص الى لذته تخلصا دائما ويبرأ عما يجده من
الالم عند الاعراض عن مقامه ذلك الى ضرورة البدن وبقي على حالته تلك حتى اناف على
سبعة اسابيع من منشئه وذلك خمسون عاما وحينئذ اتفقت له صحبة اسال وكان من قصته معه
ما يأتي ذكره بعد هذا ان شاء الله تعالى

ذكروا ان جزيرة قريبة من الجزيرة التي ولد بها حي بن يقظان على احد القولين المختلفين في
صفة مبدئه انتقلت اليها ملة من الملل الصحيحة المأخوذة عن بعض الانبياء المتقدمين صلوات
الله عليهم وكانت ملة محاكية لجميع الموجودات الحقيقية بالامثال المضروبة التي تعطي
خيالات تلك الاشياء وتثبت رسومها في النفوس حسبما جرت به العادة في مخاطبة الجمهور
فما زالت تلك الملة تنتشر بتلك الجزيرة وتتقوى وتظهر حتى قام بها ملكها وحمل الناس على
التزامها وكان قد نشأ بتلك الجزيرة فتيان من اهل الفضل والرغبة في الخير يسمى احدهما
اسال والآخر سلامان فتلقيا تلك الملة وقبلاها احسن قبول واخذا انفسهما بالتزام جميع
شرائعها والمواظبة على اعمالها واصطحبا على ذلك وكانا يتفقهان في بعض الاوقات فيما ورد من
الفاظ تلك الشريعة في صفة الله عز وجل وملائكته وصفات المعاد والثواب والعقاب (فاما
اسال فكان اشد غوصا على الباطن واكثر عثورا على المعاني الروحانية واطمع في التأويل
(واما سلامان صاحبه) فكان اكثر احتفاظا بالظاهر واشد بعدا عن التأويل واوقف عن
التصرف والتأمل وكلاهما مجد في الاعمال الظاهرة ومحاسبة النفس ومجاهدة الهوى وكان
في تلك الشريعة اقوال تحمل على العزلة والانفراد وتدل على ان الفوز والنجاة فيهما واقوال
اخر تحمل على المعاشرة وملازمة الجماعة فتعلق اسال بطلب العزلة ورجح القول بها لما كان
في طباعه من دوام الفكرة وملازمة العبرة والغوص على المعاني واكثر ما كان يتأتى له امله من
ذلك بالانفراد وتعلق سلامان بملازمة الجماعة ورجح القول بها لما كان في طباعه من الجبن

عن الفكرة والتصرف فكانت ملازمته الجماعة عنده مما يدرء الوسواس ويزيل الظنون
المعترضة ويعيذ من همزات الشياطين وكان اختلافهما في هذا الرأي سبب افتراقهما * وكان
اسال قد سمع عن الجزيرة التي ذكر ان حي بن يقظان تكون بها وعرف ما بها من الخصب
والمرافق والهواء المعتدل وان الانفراد بها يتأتى لملتمسه فاجمع على ان يرتحل اليها ويعتزل
الناس بها بقية عمره فجمع ما كان له من المال واكترى ببعضه مركبا تحمله الى تلك
الجزيرة وفرق باقيه على المساكين وودع صاحبه سلامان وركب متن البحر فحمله الملاحون
الى تلك الجزيرة ووضعوه بساحلها وانفصلوا عنه وبقي اسال بتلك الجزيرة يعبد الله عز وجل
ويعظمه ويقدسه ويفكر في اسمائه الحسنى وصفاته العليا فلا ينقطع خاطره ولا تتكدر
فكرته واذا احتاج الى الغذاء تناول من ثمرات تلك الجزيرة وصيدها ما يسد به جوعته
واقام على تلك الحال مدة وهو في اتم غبطة واعظم انس بمناجاة ربه وكان كل يوم يشاهد من
الطافه ومزايا تحفه وتيسيره عليه في مطالبه وغذائه ما يثبت يقينه ويقر عينه وكان في
تلك المدة حي بن يقظان شديد الاستغراق في مقاماته الكريمة فكان لا يبرح عن مغارته الا مرة
في الاسبوع لتناول ما سنح من الغذاء فلذلك لم يعثر عليه اسال باول وهلة بل كان يتطوف
باكناف تلك الجزيرة ويسيح في ارجائها فلا يرى انسيا ولا يشاهد اثرا فيزيد بذلك انسه
وتنبسط نفسه لما كان قد عزم عليه من التناهي في طلب العزلة والانفراد الى ان اتفق
في بعض تلك الاوقات ان خرج حي بن يقظان لالتماس غذائه واسال قد الم بتلك الجهة
فوقع بصر كل واحد منهما على الاخر * فاما اسال فلم يشك انه من العباد المنقطعين وصل
الى تلك الجزيرة لطلب العزلة عن الناس كما وصل هو اليها فخشي ان هو تعرض له وتعرف به
ان يكون ذلك سببا لفساد حاله وعائقا بينه وبين امله * واما حي بن يقظان فلم يدر ما هو لانه لم
يره على صورة شيء من الحيوانات التي كان قد عاينها قبل ذلك وكان عليه مدرعة سوداء من شعر
وصوف فظن انها لباس طبيعي فوقف يتعجب منه مليا وولى اسال هاربا منه خيفة ان يشغله
عن حاله فاقتفى حي بن يقظان اثره لما كان في طباعه من البحث عن حقائق الاشياء فلما رآه
يشتد في الهرب خنس عنه وتوارى له حتى ظن اسال انه قد انصرف عنه وتباعد من تلك
الجهة فشرع اسال في الصلاة والقراءة والدعاء والبكاء والتضرع والتواجد حتى شغله ذلك
عن كل شيء فجعل حي بن يقظان يتقرب منه قليلا قليلا واسال لا يشعر به حتى دنا منه
بحيث يسمع قراءته وتسبيحه ويشاهد خضوعه وبكاءه فسمع صوتا حسنا وحروفا منظمة لم
يعهد مثلها من شيء من اصناف الحيوان ونظر الى اشكاله وتخطيطه فرآه على صورته
وتبين له ان المدرعة التي عليه ليست جلدا طبيعيا وانما هي لباس متخذ مثل لباسه هو
ولما رأى حسن خشوعه وتضرعه وبكائه لم يشك في انه من الذوات العارفة بالحق فتشوق
اليه واراد ان يرى ما عنده وما الذي اوجب بكاءه وتضرعه فزاد في الدنو منه حتى احس به
اسال فاشتد في العدو واشتد حي بن يقظان في اثره حتى التحق به لما كان اعطاه الله من
القوة والبسطة في العلم والجسم والتزمه وقبض عليه ولم يمكنه من البراح فلما نظر اليه
اسال وهو مكتس بجلود الحيوانات ذوات الاوبار وشعره قد طال حتى جلل كثيرا منه ورأى
ما عنده من سرعة الحضر وقوة البطش فرق منه فرقا شديدا وجعل يستعطفه ويرغب

اليه بكلام لا يفهمه حي بن يقظان ولا يدري ما هو غير انه يميز فيه شمائل الجزع فكان
يؤنسه باصوات كان قد تعلمها من بعض الحيوانات ويجر يده على راسه ويمسح اعطافه
ويتملق اليه ويظهر البشر والفرح به حتى سكن جاش اسال وعلم انه لا يريد به سوأ وكان
اسال قديما لمحبته في علم التاويل قد تعلم اكثر الالسن ومهر فيها فجعل يكلم حي بن يقظان
ويسائله عن شأنه بكل لسان يعلمه ويعالج افهامه فلا يستطيع وحي بن يقظان في ذلك كله يتعجب
مما يسمع ولا يدري ما هو غير انه يظهر له البشر والقبول فاستغرب كل واحد منهما امر صاحبه
وكان عند اسال بقية من زاد كان قد استصحبه من الجزيرة المعمورة فقربه الى حي بن يقظان
فلم يدر ما هو لانه لم يكن شاهده قبل ذلك فاكل منه اسال واشار اليه لياكل فتفكر حي بن يقظان
فيما كان عاقد على نفسه من الشروط في تناول الغذاء ولم يدر اصل ذلك الشيء الذي قدم له
ما هو وهل يجوز له تناوله ام لا فامتنع عن الاكل ولم يزل اسال يرغب اليه ويستعطفه وقد كان
اولع به حي بن يقظان فخشي ان دام على امتناعه ان يوحشه فاقدم على ذلك الزاد واكل منه
فلما ذاقه واستطابه بدا له سوء ما صنع من نقض عهوده في شرط الغذاء وندم على فعله واراد
الانفصال عن اسال والاقبال على شأنه من طلب الرجوع الى مقامه الكريم فلم تتأت له
المشاهدة بسرعة فراى ان يقيم مع اسال في عالم الحس حتى يقف على حقيقة شانه ولا يبقى في
نفسه نزوع اليه وينصرف بعد ذلك الى مقامه دون أن يشغله شاغل فالتزم صحبة اسال
ولما راى اسال ايضا انه لا يتكلم امن من غوائله على دينه ورجا ان يعلمه الكلام والعلم والدين
فيكون له بذلك اعظم اجر وزلفى عند الله فشرع اسال في تعليمه الكلام اولا بان كان يشير له الى
اعيان الموجودات وينطق باسمائها ويكرر ذلك عليه ويحمله على النطق فينطق بها
مقترنا بالاشارة حتى علمه الاسماء كلها ودرجه قليلا قليلا حتى تكلم في أقرب مدة فجعل اسال
يسأله عن شأنه ومن اين صار الى تلك الجزيرة فاعلمه حي بن يقظان انه لا يدري لنفسه ابتداء
ولا ابا ولا أما اكثر من الظبية التي ربته ووصف له شأنه كله وكيف ترقى بالمعرفة حتى انتهى
الى درجة الوصول فلما سمع اسال منه وصف تلك الحقائق والذوات المفارقة لعالم الحس
العارفة بذات الحق عز وجل ووصفه لذات الحق تعالى وجل باوصافه الحسنى ووصف له
ما أمكنه وصفه مما شاهده عند الوصول من لذات الواصلين وآلام المحجوبين لم يشك أسال في
ان جميع الاشياء التي وردت في شريعته من امر الله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله واليوم
الآخر وجنته وناره هي امثلة هذه التي شاهدها حي بن يقظان فانفتح بصر قلبه وانقدحت نار
خاطره وتطابق عنده المعقول والمنقول وقربت عليه طرق التاويل ولم يبق عليه مشكل
في الشرع الا تبين له ولا مغلق الا انفتح ولا غامض الا اتضح وصار من اولي الالباب وعند
ذلك نظر الى حي بن يقظان بعين التعظيم والتوقير وتحقق عنده انه من اولياء الله الذين لا خوف
عليهم ولا هم يحزنون فالتزم خدمته والاقتداء به والاخذ باشارته فيما تعارض عنده من
الاعمال الشرعية التي كان قد تعلمها في ملته وجعل حي بن يقظان يستفصحه عن أمره وشأنه
فجعل اسال يصف له شان جزيرته وما فيها من العالم وكيف كانت سيرهم قبل وصول الملة اليهم
وكيف هي الان بعد وصولها اليهم ووصف له جميع ما ورد في الشريعة من وصف العالم
الالهي والجنة والنار والبعث والنشور والحشر والحساب والميزان والصراط ففهم حي بن

يقظان

يقظان ذلك كله ولم ير فيه شيئا على خلاف ما شاهده في مقامه الكريم فعلم ان الذي وصف ذلك وجاء به محق في وصفه صادق في قوله رسول من عند ربه فآمن به وصدقه وشهد برسالته ثم جعل يسأله عما جاء به من الفرائض ووظفه من العبادات فوصف له الصلاة والزكاة والصيام والحج وما اشبهها من الاعمال الظاهرة فتلقى ذلك والتزمه واخذ نفسه باداءه امتثالا للامر الذي صح عنده صدق قائله الا انه بقي في نفسه امران كان يتعجب منهما ولا يدري وجه الحكمة فيهما (احدهما) لم ضرب هذا الرسول الامثال للناس في اكثر ما وصفه من امر العالم الالهي واضرب عن المكاشفة حتى وقع الناس في امر عظيم من التجسيم واعتقاد اشياء من ذات الحق هو منزه عنها وبريء منها وكذلك في امر الثواب والعقاب (والامر الآخر) انه لم اقتصر على هذه الفرائض ووظائف العبادات واباح الاقتناء للاموال والتوسع في المآكل حتى تفرغ الناس للباطل بالباطل والاعراض عن الحق وكان رأيه هو ان لا يتناول احد شيئا الا ما يقيم به الرمق واما الاموال فلم تكن عنده بمعنى وكان يرى ما في الشرع من الاحكام في امر الاموال كالزكاة وتشعبها والبيوع والربا والحدود والعقوبات فكان يستغرب ذلك كله ويراه تطويلا ويقول ان الناس لو فهموا الامر على حقيقته لاعرضوا عن هذه البواطل واقبلوا على الحق واستغنوا عن هذا كله ولم يكن لاحد اختصاص بمال يسئل عن زكاته او تقطع الايدي على سرقته او تذهب النفوس على اخذه مجاهرة وكان الذي اوقعه في ذلك ظنه ان الناس كلهم ذوو فطر فائقة واذهان ثاقبة ونفوس حازمة ولم يكن يدري ما هم عليه من البلادة والنقص وسوء الرأي وضعف العزم وانهم كالانعام بل هم اضل سبيلا فلما اشتد اشفاقه على الناس وطمع ان يكون نجاتهم على يديه حدثت له نية في الوصول اليهم وايضاح الحق لديهم وتبيينه ففاوض في ذلك صاحبه اسال وسأله هل تمكنه حيلة في الوصول اليهم فاعلمه اسال بما هم عليه من نقص الفطرة والاعراض عن امر الله فلم يتأت له فهم ذلك وبقي في نفسه تعلق بما كان قد امله وطمع اسال ان يهدي الله على يديه طائفة من معارفه المريدين الذين كانوا اقرب الى التخلص من سواهم فساعده على رأيه ورأيا ان يلتزما ساحل البحر ولا يفارقاه ليلا ولا نهارا لعل الله ان يسني لهما عبور البحر فالتزما ذلك وابتهلا الى الله تعالى بالدعاء ان يهيء لهما من امرهما رشدا فكان من امر الله عز وجل ان سفينة في البحر ضلت مسلكها ودفعتها الرياح وتلاطم الامواج الى ساحلها فلما قربت من البر رأى اهلها الرجلين على الشاطئ فدنوا منهما فكلمهم اسال وسألهم ان يحملوهما معهم فاجابوهما الى ذلك وادخلوهما السفينة فارسل الله اليهم ريحا رخاء حملت السفينة في اقرب مدة الى الجزيرة التي قصداها فنزلا بها ودخلا مدينتها واجتمع اصحاب اسال به فعرفهم شأن حي بن يقظان فاشتملوا عليه اشتمالا شديدا واكبروا امره واجتمعوا اليه واعظموه وبجلوه واعلمه اسال ان تلك الطائفة هم اقرب الى الفهم والذكاء من جميع الناس وانه ان عجز عن تعليمهم فهو عن تعليم الجمهور اعجز وكان رأس تلك الجزيرة وكبيرها سلامان وهو صاحب اسال الذي كان يرى ملازمة الجماعة ويقول بتحريم العزلة فشرع حي بن يقظان في تعليمهم وبث اسرار الحكمة اليهم فما هو الا ان ترقى عن الظاهر قليلا واخذ في وصف ما سبق الى فهمهم خلافه فجعلوا ينقبضون عنه وتشمئز نفوسهم عما ياتي به ويتسخطونه في قلوبهم وان اظهروا له الرضا في وجوههم اكراما لغربته فيهم ومراعاة

سناه بالتشديد تسنية سهله وفتحه اه

لحق صاحبهم اسال وما زال حي بن يقظان يستلطفهم ليلا ونهارا ويبين لهم الحق سرا وجهارا فلا يزيدهم ذلك الا نفارا واعراضا مع انهم كانوا محبين في الخير راغبين في الحق الا انهم لنقص فطرتهم كانوا لا يطلبون الحق من طريقه ولا ياخذونه بجهة تحقيقه ولا يلتمسونه من بابه بل كانوا لا يريدون معرفته من طريق اربابه فيئس من اصلاحهم وانقطع رجاؤه من صلاحهم لقلة قبولهم وتصفح طبقات الناس بعد ذلك فراى كل حزب بما لديهم فرحون قد اتخذوا الههم هواهم ومعبودهم شهواتهم وتهالكوا في جمع حطام الدنيا والهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر لا تنجع فيهم الموعظة ولا تعمل فيهم الكلمة الحسنة ولا يزدادون بالجدل الا اصرارا واما الحكمة فلا سبيل لهم اليها ولا حظ لهم منها قد غمرتهم الجهالة وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم فلما راى سرادق العذاب قد احاط بهم وظلمات الحجب قد تغشتهم والكل منهم الا اليسير لا يتمسكون من ملتهم الا بالدنيا وقد نبذوا اعمالها على خفتها وسهولتها وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا والهاهم عن ذكر الله تعالى التجارة والبيع ولم يخافوا يوما تتقلب فيه القلوب والابصار بان له وتحقق على القطع ان مخاطبتهم بطريق المكاشفة لا يمكن وان تكليفهم من العمل فوق هذا القدر لا يتفق وان حظ اكثر الجمهور من الانتفاع بالشريعة انما هو في حياتهم الدنيا ليستقيم له معاشه ولا يتعدى عليه سواه فيما اختص هو به وانه لا يفوز منهم بالسعادة الاخروية الا الشاذ النادر وهو من اراد حرث الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن واما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى واي تعب اعظم وشقاوة اطم ممن اذا تصفحت اعماله من وقت انتباهه من نومه الى حين رجوعه الى الكرى لا تجد منها شيئا الا وهو يلتمس به تحصيل غاية من هذه الامور المحسوسة الخسيسة اما مال يجمعه او لذة ينالها او شهوة يقضيها او غيظ يتشفى به او جاه يحرزه او عمل من اعمال الشرع يتزين به او يدافع عن رقبته وهي كلها ظلمات بعضها فوق بعض في بحر لجي وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا فلما فهم احوال الناس وان اكثرهم بمنزلة الحيوان غير الناطق علم ان الحكمة كلها والهداية والتوفيق فيما نطقت به الرسل ووردت به الشريعة لا يمكن غير ذلك ولا يحتمل المزيد عليه فلكل عمل رجال وكل ميسر لما خلق له سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا فانصرف الى سلامان واصحابه فاعتذر اليهم عما تكلم به معهم وتبرأ اليهم منه واعلمهم انه قد راى مثل رأيهم واهتدى بمثل هديهم واوصاهم بملازمة ما هم عليه من التزام حدود الشرع والاعمال الظاهرة وقلة الخوض فيما لا يعنيهم والايمان بالمتشابهات والتسليم لها والاعراض عن البدع والاهواء والاقتداء بالسلف الصالح والترك لمحدثات الامور وامرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من اهمال الشريعة والاقبال على الدنيا وحذرهم عنه غاية التحذير وعلم هو وصاحبه اسال ان هذه الطائفة المريدة القاصرة لا نجاة لها الا بهذا الطريق وانها ان رفعت عنه الى بقاع الاستبصار اختل ما هي عليه ولم يمكنها ان تلحق بدرجة السعداء وتذبذبت وانتكست وساءت عاقبتها وان هي دامت على ما هي عليه حتى يوافيها اليقين فازت بالامن وكانت من أصحاب اليمين واما السابقون السابقون فاولئك المقربون فودعاهم وانفصلا عنهم وتلطفا في العود الى جزيرتهما حتى يسر الله عز وجل عليهما العبور اليها وطلب حي بن يقظان مقامه الكريم بالنحو

الذى

الذي طلبه أولا فعاد اليه واقتدى به ... في قرب منه او هاده سبيلا اليه بملك الجزر حتى اتاهم اليقين هذا ايدنا الله واياك بروح منه ما كان من نبأ حي بن يقظان واسال وسلامان وقد اشتمل على حظ من الكلام لا يوجد في كتاب ولا يسمع في معتاد خطاب وهو من العلم المكنون الذي لا يقبله الا اهل المعرفة بالله ولا يجهله الا اهل الغرة بالله وقد خالفنا فيه طريق السلف الصالح في الضنانة به والشح عليه الا ان الذي سهل علينا افشاء هذا السر وهتك الحجاب ما ظهر في زماننا هذا من اراء مفسدة نبغت بها متفلسفة العصر وصرحت بها حتى انتشرت في البلدان وعم ضررها وخشينا على الضعفاء الذين اطرحوا تقليد الانبياء صلوات الله عليهم وارادوا تقليد السفهاء ان يظنوا ان تلك الاراء هي المضنون بها على غير اهلها فيزيد بذلك حبهم فيها وولوعهم بها فراينا ان نلمع اليهم بطرف من سر الاسرار لنجتذبهم الى جانب التحقيق ثم نصدهم عن ذلك الطريق ولم نخل مع ذلك ما اودعناه هذه الاوراق اليسيرة من الاسرار عن حجاب لطيف ينهتك سريعا لمن هو من اهله ويتكاثف لمن لا يستحق تجاوزه حتى لا يتعداه وانا اسال اخواني الواقفين على هذا الكلام ان يقبلوا عذري فيما تساهلت في تبيينه وتسامحت في تثبيته فلم افعل ذلك الا لاني تسنمت شواهق يزل الطرف عن مرآها واردت تقريب الكلام فيها على وجه الترغيب والتشويق في دخول الطريق واسال الله التجاوز والعفو وان يوردنا من المعرفة به الصفو انه منعم كريم والسلام عليك ايها الاخ المفترض اسعافه ورحمة الله وبركاته

تم بعون الله طبع رسالة حي بن يقظان الحكميه عزيزة المثال سهلة المنال البهيه
المحتويه على انفس الغرائب بنات الافكار الرائقة الثواقب بمطبعة وادي
النيل العامرة البهيه بمصر المحروسة بالعناية الالهية في اوائل
شهر شعبان سنة ١٢٩٩ من هجرة سيد ولد عدنان
صلى الله عليه وعلى اله واصحابه ومن
كان على هديه ومنواله ما هدر
الحمام وفاح شذ
التمام
م

(ذكر ابن خلكان في ترجمة ابي علي بن سينا ان هذه الرسالة من مؤلفاته فلعلها كانت بالفارسية وترجمها ناقلها هذا رحم الله الجميع)